

الكتاب العربي السعودي
٨٨

عزيز ضياء

قصص من تاغور

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية



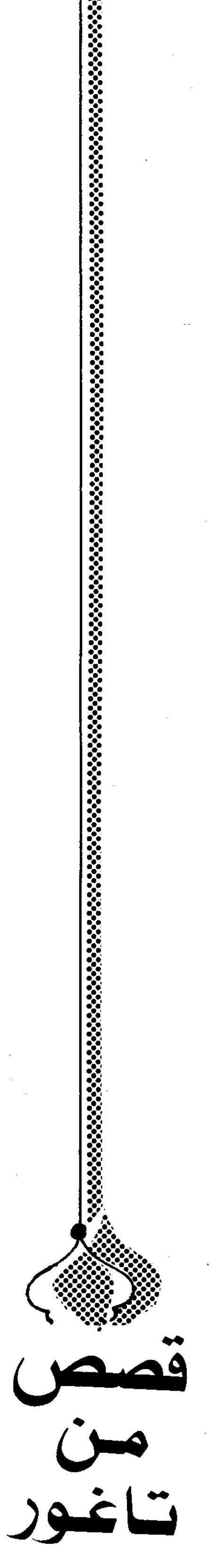
بسم اللہ الرحمن الرحیم



الناشـــر

تهـامـــة

جـدة ـ المملكـة العَربيـة السُعوديَة
ص.ب ، ٥٤٥٥ ـ هاتف ، ٦٤٤٤٤٤٤



قصص من تاغور

المقدمة

جائزة نوبل فى الأدب قد تداعب أحلام كل كاتب، تقرر له شخصية مرموقة بما استطاع أن يقدمه من أعمال لخدمة قضايا الانسان . وليس ذلك لأهمية مقدار الجائزة الذى يختلف سنة عن أخرى على ضوء الأرباح التى تحققها المشاريع الكثيرة الموقوفة عليها ، وانما ـ بالاضافة الى ذلك ـ الى المجد الأدبى العالمى الذى يضفيه الفوز بها على من يستحقها .

وقد استحقها شاعر الهند وفيلسوفها ـ كما ظل يعرف فى العالم العربى ـ رابندرانات تاغور فى عام ١٩١٣م ، أى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بسنة واحدة . ويمكن القول إن تاغور كان ـ وقد ظل ـ الشرقى الوحيد الذى فاز بالجائزة ، الى أن منحت فى اواسط السبعينات للكاتب اليابانى « ياسونارى كاواباتا » ... وكان الشرقى الثالث الذى فاز بنصف الجائزة فى السلام ، وليس فى الأدب ـ الرئيس محمد أنور السادات فى أعقاب مبادرة السلام التى أقدم عليها منفردا ... وكان النصف الآخر ـ وللأسف ـ للارهابى المعروف « مناحم بيجن » رئيس وزراء العدو .

ومع أن فوز تاغور بهذه الجائزة فى عام ١٩١٣ ، مع الملابسات والظروف التى أحاطت بهذا الفوز ، يمكن اليوم أن يفسرّ أو يعلل بأنّه كان تحت مظلة الاستعمار البريطانى ، وربما برغبة مستورة لاحتواء أو استرضاء الطبقة المثقفة فى الهند ، وقد كانت درّة التاج فى امبراطورية بريطانيا العظمى ، فان تاغور كان فى الواقع الكاتب الذى ظل يسطع ويستلفت الانظار فى الهند ـ وربما فى بريطانيا أيضا ، منذ بلغ الرابعة عشرة من العمر ، يوم وقف ذات يوم فى مهرجان من المهرجانات الوطنية فى البنغال ، يقرأ شعراً يتغنّى فيه بأمجاد الهند فى ماضيها العظيم ، وينعى عليها واقعها وهى ترزح تحت نير العبودية والاستعمار .

ولكن ، رغم اعتزازه بأمجاد بلاده ، وتحمسه لقضية النضال فى سبيل الحريـة والاستقلال ، فقد ظل بمنآى عن تطرف الحركة الوطنية التى كانت قد أخذت تشتعل فى البنغال التى كانت ـ ولعلها ماتزال ـ أحفل أقاليم الهند بالطبقة المثقفة ـ وتزحف الى الأقاليم الأخرى ، وذلك ما لم تكن بريطانيا تغفل عنه بطبيعة الحال . وكأن تاغور فى موقفه هذا قد اختار أن يعبر فى شعره ، وقصصه ومسرحياته ، عن تعشّقه للحرية والمناداة بها والدعوة إليها ، بما يمكن أن نسميه طريقته أو مفهومه الخاص .

وانطلاقا من هذا المفهوم الخاص ، أسس تاغور مدرسة احتضنت نظرياته فى التربية والتعليم ، ومحورها (التحرر) من قيود وأغلال التقاليد العتيقة البالية التى كان هو ، ومعه كل مثقف ، يعزو إليها ما يعانيه الشعب الهندى فى جميع أقاليمه من التخلّف والجهل . وقد كانت مدرسة فريدة فى نظامها ومواد ومناهج التعليم فيها ، ولعل أغرب ما عرفت به ، أنها تقيم فصولها فى الهواء الطلق ، وليس من شروط أو قيود لتسجيل من يرغب الانضمام إليها ، فقد أقبل عليها الطلاب من جميع البلدان ، حيث لا يدرسون أو يتعلمون فقط ـ كما هو المألوف ـ وانما يشـاركون فى جميـع انشطتها وأعمالها . وقد تطورت هذه المدرسة مع الأيام بحيث أصبحت تعرف باسم (فيسفابهاراتى) أى (جامعة العالم) ، وبعد هذه المدرسة التى نجحت وتسامعت بها محافل الثقافة والفكر فى أوروبا على الأخص ، قام تاغور بتأسيس (القريـة النموذجية) التى أراد لها أن تكون وحدة تطبيقية لنظام اقتصادى واجتماعى مرسوم ، وهذه أيضا حققت ما تطلّع اليه من نجاح .

والمعروف عن تاغور أنه شديد الاعتزاز بلغته البنغالية ، ولذلك فقد كتب جميع أعماله ، بهذه اللغة ، رغم أنها ليست من اللغات السهلة ، وهى واحدة من أكثر من عشرين لغة من اللغات المكتوبة فى الهند ، مما يجعل انتشار أعمال تاغور فى الهند نفسها ـ باستثناء البنغال ـ أمرا بالغ الصعوبة . ولذلك فان القليل جدا من هذه الأعمال قد ترجم الى الانجليزية ، أو إلى غيرها من اللغات الحية وهذا القليل ، هو الذى عرفه العالم ، فاغدق عليه الشهرة ، ورفعه إلى المكانة العالية التى تمتع بها حيا ، وجعلت شخصيته تحتل مكانها المرموق بين عمالقة الأدب العالمى حتى اليوم .

وكانت أول رحلة له إلى انجلترا حين كان فى السابعة عشرة من عمره ، ولكنه لم يقصدها للدراسة فى جامعاتها وعلى الأخص أوكسفورد وكامبريدج ، كما كانت عادة العائلات ذات الوجهاهة والثراء فى الهند ـ وربما حتى اليوم ـ وانما هى رحلة رافق فيها أخاه الأكبر الذى كان أول هندى يوظّفه الانجليز فى احدى الوظائف الكبيرة فى الهند . وبعدها تكررت رحلاته الى انجلترا خاصة والى لندن فى عام ١٩١٢ ، حيث تعرف فيها الى الكاتب الأيرلندى (ويليام بتلر ييتس) الذى غلب على شعره استيحاء الطبيعة والأساطير الأيرلندية والذى بلغ من اعتزازه بايرلندة ، وريفها وأساطيرها ، أن ظل يدعو كتاب وشعراء بلده أن يستوحوا واقع بلادهم وان يكرسوا فنّهم لكل ما هو ايرلندى دون سواه ، وبهذه الروح المحمومة بعشق وطنه كتب أعماله الشعرية الأولى ثم أولى مسرحياته ، ثم أصبح رائد الحركة المسرحية فى ايرلندة ، وإليه يرجع الفضل فى ظهور مسرح (THE ABBY THEATRE) الذى توطدت له شهرة عالمية مايزال يتمتع بها حتى اليوم . والنقاد يعتبرون ييتس أول شعراء المدرسة الرمزية فى اللغة الانجليزية ، وقد ظل ييتس يتنقل فى مدارج الشهرة والمجد فى انجلترا وايرلندة بحيث كان فى عام ١٩١٢ علما من أعلام الأدب الانجليزى الذى يجد فى المستعمرات من الحفاوة والإقبال والإعجاب ، ما لا يقل عما يجده فى بلاده وموطنه .

وحين نقرأ شعر تاغور أو قصصه القصيرة أو رواياته ومسرحياته ، نجد أنه هو أيضا حريص على أن يستوحى طبيعة الهند وأساطيرها ، ويتعمق روحها ويعتز بلغتها ولا يكتب إلاّ بهذه اللغة ، مع أنه لم يكن ليعجزه أن يكتب بالانجليزية ، كما يفعل اكثر ادباء الهند فاذا حرص فى هذه الرحلة من رحلاته الى لندن ، أن يتعرف إلى هذا الشاعر بالذات ، فلأنه وجد فيه نفس النوازع والميول ،والركائز الروحية والمثل ، ولذلك لا يجد ما يمنع أن يسمعه مقطوعات من مجموعة الشعر الدينى التى كتبها بالبنغالية وسماها (جيتا نجالى) وقد قام بترجمتها إلى الأنجليزية ، ربما بغرض عرضها أو قراءتها على من يتعرف عليهم من أدباء انجلترا ونقادها ، وفى مقدمتهم (ويليام بتلر ييتس) الذى لم يخف اعجابه بما سمع أو قرأ ، مما جعل تاغور يقرأ من

هذه المقطوعات للكاتب والشاعر الأمريكى (ايزرا باوند) الذى كان قد أقام فى لندن منذ عام ١٩٠٨ ، وتوطدت له فى انجلترا شهرة ومكانة مرموقة كشاعر ، وكناقد استلفت الأنظار بعمق دراساته النقدية إلى الحد الذى جعل (تى . أس . ايليوت) يقول عنه : « ان النقد الأدبى الذى يكتبه باوند هو أكثر الأعمال أهمية فى النقد الأدبى المعاصر » .

ولم يخيّب باوند أمل الشاعر القادم من الهند بهذا الشعر الدينى الذى ما كاد يفرغ من قراءته ، حتى أسرع يبعث به الى مجلة الشعر التى كانت تصدرها (هاريت مونرو) فى لندن . ونشرت المجلة مقطوعات منه ، ثم ما هى إلا فترة قصيرة ، حتى ظهرت مجموعة (جيتا نجالى) فى كتاب قدمه (ويليام بتلر ييتس) . نفسه ، وليس هذا قليلا بطبيعة الحال . ولم تمض سنة بعد ذلك حتى فاز تاغور بجائزة (نوبل) فى الأدب ، ومع هذه الجائزة جاءت الشهرة التى ملأت آفاق العالم باسم الشاعر الهندى وشعره الدينى (جيتا نجالى) أى (قرابين الغناء) ، الذى ترجم الى جميع اللغات الحية وأخذت بعض أعماله الأخرى فى القصة القصيرة ، والرواية ، تجد من يعنى بترجمتها الى اللغة الانجليزية ، ومنها الى اللغات الأخرى .

ولكن ، مما لايزال يسترعى الانتباه ، ويحمل على التوقف قليلا ، أن التاج البريطانى منح تاغور لقب « فارس » ، فى نفس السنة التى فاز فيها بجائزة نوبل ، مما قد يبرر التفسير القائل إن بريطانيا كانت وراء فوزه بالجائزة العالمية ، ربما دون أن يعلم الشاعر أو يشعر بشىء على الإطلاق ، والغرض هو احتواء « الأينتليجنسيا » ، ليس فى الهند فقط ، وانما فى جميع ممتلكات التاج التى بدأت بريطانيا ترى أنها أوشكت ان تصحو من اغفائها أو نومها الطويل .

بالنسبة لتاغور ، وقد فاز بالجائزة ، ومنح لقب فارس فى نفس السنة التى صدر فيها ديوانه ، كان طبيعيا أن يشعر أنه قد بلغ من المجد القمة التى ليس بعدها زيادة لمستزيد ، ولكن الواقع كان شيئا آخر ، إذ أخذ يضيق بهذه الشهرة وتبعاتها التى

لا تنتهى ، ويتوق الى تلك الحياة الوادعة الهادئة التى ألف أن يحياها ، فيلوذ بها كلما وجد إليها السبيل فى مسيرة حياته الطويلة وقد نيّف على الثمانين .

ومع أن لقب (فارس) الذى حظى به تاغور ، ليس من الألقاب التى تعطى جزافا فى انجلترا ، بل ليس من الألقاب التى يسهل التضحية بها أو رفضها ، فاننا نجد تاغور يخلع عن نفسه هذا اللقب ، ويقذف ببراءته الى التاج بعد ست سنوات ، وذلك عندما ارتكب الانجليز واحدة من أبشع جرائمهم القمعية ، إذ قتلوا عددا كبيرا من شباب تظاهروا ضد مظالم الحكم الاستعمارى الغاشم فى « امريتسر » . وهذا موقف شجاع يؤكد أن الشاعر ، وإن كان قد ظل ينأى عن الحركات المتطرفة ، ويؤثر الاكتفاء بما يكتب ، وما يدعو اليه من مثل ، فانه لم يكن ضالعا مع الاستعمار أو عميلا من عملائه ، أو عاملا على دعمه ، كما يمكن أن يرجح لدى من يخدعون بظاهر الحال .

ثم هناك حقيقة أخرى لابد أن يلتفت إليها ، فى مناقشة أسباب النجاح الذى حققه تاغور ، وهى أن الرجل ينحدر من إحدى أعرق الأسر ، وأكثرها جاها وثراء ونبلا فى البنغال . إذ كان جده من كبار الرأسماليين ورجال الأعمال ، بينما كان أبوه أحد كبار رجال الفكر ومن قادة حركة الاصلاح الدينى ، وكان له من الاخوة الذين يكبرونه أحد عشر بين ذكور واناث ، عرف أحدهم ككاتب وفيلسوف ، وعرفت احداهن بانها أول كاتبة روائية فى الهند ، أما الأخ الذى اصطحبه الى لندن للمرة الأولى فى حياته فكان أول رجل هندى يعهد اليه بمنصب رئيسى فى حكومة الهند . والأسرة ككل تتمتع بثراء عريض ، وتملك عقارات وأراضى تدر عليها دخلا كبيرا ، يغنيها عن التزلف والتماس السبل الى الوجاهة والعز ، وهذا الى جانب مستوى أفرادها الثقافى ومشاركتهم فى مختلف مجالات الفن ، كالرسم والموسيقى والغناء . وبكل هذا يرتفع الشاعر عن مستوى الشبهات ، ليحتل المكانة الكبيرة التى استحقها كشاعر وفيلسوف وفنان .

ومع أن تاغور يكاد لا يعرف فى أوساط المثقفين فى الغرب ، إلا بأنه الشاعر الذى كتب (جيتانجالى) ، فان تعدد المواهب والقدرات التى كان يتمتع بها تجعله نموذجا

فريدا بين عمالقة الفكر فى الشرق . فهو شاعر كبير ، ولكنه أيضا ، كاتب رواية ، ومسرحية وقصة قصيرة ، ومجدد فى الأسلوب الأدبى فى لغته ، والذين تعمقوا أعماله يعدونه بين فلاسفة العصر ، وهو من كبار دعاة الاصلاح الاجتماعى . واذا كانت له هذه المكانة والمواهب فى مجال الفكر ، فانه فى مرحلة متأخرة من عمره تعلق بفن الرسم ، وبرع فيه ومازال له أعمال رائعة يحترمها الفن التشكيلى ، ومنذ صباه ، وحتى المراحل الأخيرة من عمره كان من عشاق الموسيقى ، والغناء ، اذ مما يذكر عن مواهبه انه يجيد الغناء ويجيد تأليف الموسيقى ، وله الحانه المعروفة التى استوحاها من واقع حياة الجماهير .

وبعد ،،،

فهذا هو الشاعر القاص الذى يجد القارىء مجموعة صغيرة من قصصه القصيرة ، التى نقلتها الى العربية عن الانجليزية منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، وكان أول عهدى به فى مكة ، حيث وجدت عند بائع للكتب القديمة كتابا له اسمه (الهلال) (CRESCENT MOON) وكنت قد بدأت اقرأ اللغة الانجليزية واتذوق ما ينقل اليها من آداب اللغات الأخرى ، فقرأت هذه المقطوعات من الشعر فى الكتاب مأخوذا بلمساته الانسانية فى تصويره لمشاعر الأمومة نحو الطفل .، وتهيّبت الترجمة فى ذلك الوقت ، ثم كان من قدرى أن سافرت الى الهند للعمل فى اذاعتها مترجما مذيعا ، فكان أول ما اشتريته هناك مجموعة من كتب تاغور بالانجليزية .... ولن أنسى ما حييت أياما كنت اقرأ فيها هذه الكتب واعيش هذا الجو ، وهذه الطبيعة فى الريف الهندى ، التى يبدع تاغور فى وصفها أيما ابداع ، بل كنت احس مدى الصدق فيما يكتب ، حين أرى نماذج حية لكثير من الشخصيات التى صورها فى قصصه ، « فالعم كابلى » مثلا ، هذا الأفغانى الذى يسرح باللوز والجوز والزبيب وبعض الفاكهة ، وتجد قصته فى هذه المجموعة ، لم يكن يغيب عن الشارع الذى اسكنه ، فاراه بعمامته البيضاء ، وملابسه الفضفاضة ونظراته الحادة . وذلك (الوجيه من نايانجور) وابنته الشابة الجميلة ، ما اكثر ما رأيت نماذجهما فيمن جردهم الاستقلال من ممتلكاتهم فى باكستان ولجأوا الى الهند يعيشون حياة اللجوء

والتشرد ، ولكن مع التعلق باذيال الوجاهة والعز ، بل ، حتى (مأمور البريد) لم أكن اعدم رؤية امثاله بين زملائى من موظفى الاذاعة التى كنت أعمل فيها ، وحتى الفيضانات فى موسم الأمطار ، التى جرفت ذلك الطفل وهو يلهو ، وخادمه يجمع له الزهر ، ما أكثر هذه الفيضانات فى هذه المواسم ، حتى فى مدينة كدلهى الجديدة .

وحين عدت إلى المملكة بعد اقامة ما يقرب من سنتين فى الهند ، كان من آمالى أن انقل الى العربية كل ما أجده مترجما الى الانجليزية من كتب تاغور ، وقد استطعت أن اترجم عددا كبيرا من قصصه القصيرة ، ولكن حين جئت ابحث عما ملأت به أكثر من ثلاثمئة صفحة لم أجد إلا هذا الذى تنشره تهامة اليوم ، ولا أدرى أين أختفى الباقى ... فعسى أن أجده ذات يوم ، لأجعل منه الجزء الثانى من « قصص من تاغور » .

قد يطيب للقارىء أن يسأل عن السبب فى أنى لم اترجم (جيتا نجالى) التى قلت إن أكثر المثقفين فى الغرب ، لا يعرفون عن تاغور إلا أنه الشاعر الذى كتبها . وهو سؤال يرد بالطبع ... والسبب ببساطة ، انى سمعت أنه ترجم ، منذ أكثر من أربعين عاما ، وطبع فى القاهرة ، فلا معنى لترجمته بقلمى ... ولكن يبدو أنه لم يطبع مرة ثانية ، وقد لا يجد من يعنى باعادة طبعه ، ولذلك فانى أطمع فى أن أفرغ لترجمته عندما يسعف الوقت ، وتساعد الظروف ... إن شاء الله .

عزيز ضياء

فى ١٧/١١/١٣٩٩هـ

عودة الطفل

كان ريكاران ، فى الثانية عشرة من عمره ، حين جاءوا به ليعمل خادما فى بيت سيده . وكان من نفس الطبقة التى ينتمى اليها سيداه ، فلم يترددا فى ان يعهدا اليه بالسيد الصغير ـ ابن سيده الكبير ـ ليعنى به ، ويقوم على شؤونه .

وعلى مر الأيام ، ترك الطفل ذراعى خادمه ريكاران ليدخل المدرسة ، وحين انتهت الدراسة الأولى التحق بالجامعة ، ولما فرغ منها ، انتسب الى سلك القضاء . وظل ريكاران ، الى أن تزوج سيده الصغير خادماً لاعمل له إلاَّ العناية بشؤون طفل الأمس ، ورجل اليوم .

ولكن حين تزوج سيده ، ودخلت الزوجة البيت وجد ريكاران ان له سيدين بدلا من واحد ، وأن كل ما كان له من نفوذ وشأن فى المنزل قد انتقل الى السيدة الجديدة . وعز عليه ذلك ولكن سرعان ما جاءه العوض ، اذ رزق « آنوكول » طفلا اسرع ريكاران الى تكريس كل جهده للعناية به والإهتمام بأمره وتم له بذلك ان يبسط سلطانه الكامل عليه .

وما أكثر ما كان يدلل ريكاران الطفل ، وما أكثر ما كان يحمله على كتفه يؤرجحه بين ذراعيه ، ثم يناغيه ويثرثر معه بلغة الأطفال ولهجتهم ، أو يلصق وجهه بوجهه الناعم الصغير ، ثم يبعده عنه ، ويسترسل معه فى الضحك والدعابة والمرح .

ونما الطفل قليلاً ، واصبح قادراً على ان يحبو ، وان يغامر بالخروج من البيت ، فاذا ما لحق به ريكاران ليمسكه ، صاح يضحك ضحكاته الخبيثة ، وحاول ان يفلت منه . وكم كان يدهش ريكاران ، لما يبديه الطفل من ذكاء وألمعية فى مداورته كلما حاول اللحاق به ، فلا يملك إلا أن يقول لسيدته فى عجب ودهشة : « سيكون ابنك قاضياً فى يوم من الأيام » .

وتلاحقت بعد ذلك اسباب الدهشة والإعجاب تملأ نفس ريكاران بالطفل الصغير . وذلك حين بدأ الطفل يمشى مشيته المهتزة المرتعشة ، وحين اخذ ينادى أباه .. « بابا » وينادى أمه « ماما ... ماما » وينادى ريكاران ايضا « كانا .. كانا » . كانت فرحة الخادم بكل هذا لا حدود لها ولا سبيل الى وصفها .

وما هى إلا فترة اخرى حتى أصبح ريكاران مطالبا بأن يظهر براعته بطرق أخرى . كأن يقوم بدور الحصان مثلا ـ يمسك اللجام بين أسنانه . ثم يقفز او يطفر على قدميه ، أو يتصـــارع مع وديعته الصغيرة ، فاذا لم يصرعه الصغير ويطرحه أرضاً ، بحركة من حركات المصارعة ، كان عليه ان يسقط هو على قفاه متظاهراً بالهزيمة فى النهاية ، فاذا صيحات الفرح والغبطة تنطلق من حنجرة الطفل وينطلق معها صوت ريكاران ضاحكاً مغتبطاً .

وفى هذه الفترة من الزمن ، حدث ان نقل الأب آنوكول الى إقليم على ضفاف وادى بادما وفى طريقه الى عمله الجديد اشترى لابنه من كلكتا ـ وقد مر بها ـ عربة وصديريا من الحرير الأصفر ، وقبعة موشاة بالذهب ، وأساور وخلاخيل من الذهب الخالص ولم يكن ريكاران يحب شيئا كما يحب ان يخرج كل هذه الزخارف وان يزوق بها وديعته فى كثير من الاحتفال والزهو والخيلاء كلما خرج معه للنزهة فى المساء .

وجاء فصل الأمطار ، وظلت السماء تمطر يوما بعد يوم . وظل النهر الجائع كالأفعوان الضخم الرهيب ، يبتلع فى فيضانه القرى والحقول ، ويغمر بمياهه الحشائش والأعشاب . من وقت لآخر ، كانت تسمع أصوات انهيار الضفاف ، وقد جرفتها مياه الفيضان الثائر ، تقطع هدير النهر المتواصل ، بينما ترى ، أكوام من كتل الزبد وهى تسرع طافيـة على سطحه ، كأنها تريد ان تثبت للعيون سرعة اندفاع النهر المجنون .

وتوقف المطر بعد ظهر أحد الأيام . ومع ان السماء قد بدت غائمة مربدة ، إلاّ أن الجو كان لطيفا . وكأن وديعة ريكاران الصغيرة . لم تشأ ان تظل وراء جدران البيت فى مثل هذه الأمسية الجميلة ، فما أسرع ما تقدم السيد الصغير الى عربته وتسلقها واستقر فى مقعده منها . ولم يتردد ريكاران فى دفع العربة والخروج بسيده الحبيب ، حيث ظل يمشى به فى بطء وحذر الى ان وصل الى حقل من حقول الأرز على ضفة النهر .

ولم يكن فى الحقل ، كما لم يكن فى النهر قارب . وعلى الجانب الآخر من النهر ، عبر المياه ، كانت السحب تنفرج فى الغرب ، ويظهر موكب الشمس النارى ، فى بهائه المتألق الرائع .

وفجأة ، فى غمرة هذا السكون السائد العميق ، انطلق صوت الطفل يصيح ويشير بيده الى شيء أمامه وهو يردد : « كانا .. كانا » .

ونظر ريكاران ، الى حيث يشير الطفل .. وهناك على مقربة من المكان الذى يقفان فيه ، كانت شجرة الكاداميا ، مثقلة بحملها من زهرها الجميل .. وأدرك ريكاران – فى الحال – ماذا يريد السيد الصغير ولكنه لم يكن يحب ان يخوض فى الوحل الى ركبته ليصل الى الأزهار التى يريدها الطفل فأسرع يشير بيده الى الجهة الأخرى وهو يهتف : « انظر .. أنظر هناك .. أنظر الى ذلك الطائر » .

ثم أسرع يدفع العربة ، وهو يثير كل ما يستطيعه من ضجة وضوضاء ، يحاول أن يصرف بها نظر الطفل عن الشجرة والأزهار ، ولكن هذا الطفل ، الذى بشر ريكاران بانه سيكون قاضياً ، لم يكن من السهل زحزحته عن رغبته . وهذا بالاضافة الى أنه لم ير فى الاتجاه الذى لفت ريكاران اليه النظر ، أى شيء يستحق الالتفات . ومن المتعذر بالطبع ان يستمر المرء فى التظاهر برؤية طائر لا وجود له . ولهذا فقد استقر رأي السيد الصغير على الوصول الى ما يريد .. وأوشكت جعبة ريكاران ان تفرغ من كل حيلة أو وسيلة يصرف بها نظر الطفل عما يريد . فلم يسعه الا أن يستسلم اخيرا وهو يقول : « حسنا أيها الصغير .. حسنا ، ولكن اجلس هادئا فى العربة بينما أذهب أنا لأجيئك بالأزهار الجميلة .. واحذر .. احذر ان تقترب من الماء .. » .

ثم خلع نعليه ، وشمرّ عن ساقيه ، وشرع يخوض فى الأرض الموحلة فى اتجاه الشجرة ..

ولكن ما كاد ريكاران أن يمضى فى اتجاهه ، حتى وثبت أفكار السيد الصغير الى المياه التى حذره منه ريكاران .. فقد رأى النهر يندفع ويهدر ويتدفق فى انطلاقه المستديم ، وبدا كأن الأمواج الصغيرة وهى تتسابق على سطح النهر ، تركض هاربة من ريكاران آخر ، أكبر واضخم .. وهى ترسل ضحكات ألف طفل جرىء .. وحين رأى الطفل هذا

المرح الخبيث يدور على سطح النهر ، وثب قلبه فى صدره دهشة وإعجاباً ، فاسرع يهبط من العربة ثم استند على حافة النهر . واخذ يتظاهر ، بانه يصطاد سمكاً ..

وكأن حوريات النهر الخبيثات ، وهن يرقصن أمامه رقصهن المرح الطروب كن ينادينه ويغرينه بأن يشاركهن فرحهن الطافر الجميل ..

وقطف ريكاران ملء يديه زهرا من الشجر ، وعاد به بعد ان خبأه فى ثنية من ثنايا ثوبه وقد شع وجهه بابتسامة ، ولكنه حين وصل الى العربة وجدها خالية تماما .. وتلفت حوله فى كل اتجاه ، ولكنه لم يجد أحداً ، وعاد ينظر الى العربة مرة اخرى ، ولكن الطفل لم يكن فيها .

وجمد الدم فى عروقه فى تلك اللحظة الرهيبة الحرجة ... ودارت أمام عينيه الدنيا بكل ما فيها وما عليها وكأنها ضباب أسود كثيف . وأرسل من أعماق قلبه المحطم صرخة مزقت السكون السائد العميق : ـ « سيدى .. سيدى .. سيدى الصغير » .

ولكنه لم يسمع جوابا . لم يسمع « كانا .. كانا » يهتف بها صوت السيد الصغير .. ولم يسمع ضحكاته المرحة الخبيثة تفاجئه من هذاالمخبأ او ذاك وترحب بعودته كالمعتاد .. لم يسمع سوى هدير النهر ، وضجة اصطفاقه ، ولم ير سوى هذه الموجات الصغيرة ، تتسابق طافية على سطحه العريض وكأنها لا تعى شيئاً عن السيد الصغير على الإطلاق ، وكأنها لا وقت عندها لتعبأ بهذا ، الحادث الانسانى التافه ... موت طفل .. هو سيد ريكاران الحبيب ..

وحين أخذ الليل يزحف بعد الغروب ، ولم يعد ريكاران بوديعته الصغيرة الى المنزل بدأ القلق يساور أمه ويزداد شيئا فشيئا . فأرسلت وراءهما الرجال يبحثون عنهما فى كل مكان .. فانتشروا وفى أيديهم الفوانيس يستضيئون بها حتى وصلوا فى النهاية الى ضفاف البادما .. وهناك عند حقل الأرز وجدوا ريكاران يخبط خبط عشواء ، ويجرى من مكان الى مكان ، وكأنه العاصفة روعا وفزعا ولهفة ، وهو يزمجر . فى صوت يائس .

ـ « سيدى ... سيدى .. سيدى الصغير » .

وحين استطاع الرجال أن يعودوا بريكاران الى البيت أخيرا ، سقط منكبا على قدمى سيدته .. وانهالت عليه اسئلة الجميع وصرخاتهم ، يهيبون به ان يتكلم .. ان يفصح .. ان

يقول لهم اين السيد الصغير ؟ أين ترك الطفل ؟.. ولكن كل ما وسعه ان يجيب به هو انه لا يدرى .. لا يدرى شيئا على الاطلاق .

ومع ان الجميع ، قد ذهبوا الى ان نهر البادما هو الذى ابتلع الطفل ، الا أن اثرا من الريبة والشك ظل يساور النفوس ، لأن شرذمة من الغجر قد رؤيت فى مشارف القرية ، بعد ظهر ذلك اليوم . وشك بعض اعضاء الأسرة ان يكون هؤلاء الغجر قد اختطفوا الطفل وذهبوا به كما اعتادوا ان يفعلوا ..

وبلغ الحزن بنفس الأم ، وعقلها ، ان ظلت تصر على ان من الممكن ان يكون ريكاران نفسه قد سرق الطفل .. وعلى هذا فقد نادته وأخذته جانبا عن الآخرين ، وهى تتلطف به وتقول :

ـ « ريكاران .. أعد الىَّ ولدى .. أعد الىَّ ولدى ، وخذ منى اى مبلغ تريد .. خذ ما تشاء وأعد إلىَّ ولدى ..»

ولكن ريكاران لم يجب بشىء ، وظل يصفع جبهته عند كل سؤال وعند كل رجاء .. ولم تجد الأم فى النهاية بداً من ان تأمره بالخروج من البيت .

وحاول آنوكول ، أن يهدىء من روع زوجته ، وأن يزيح عن ذهنها هذه الشكوك الظالمة وهو يقول : « لعمرى .. لماذا ..؟؟ لماذا يرتكب ريكاران جريمة شنيعة كهذه ؟؟؟ وما هو الباعث ؟ » ولكن زوجته اصرت دائما على رأيها وقالت :ـ

ـ « لقد كان الطفل يتحلى بحلى من الذهب .. ومن يدرى ....» وكان من المستحيل بعد هذا ، إقناعها بشىء .. ..

* * *

وعاد ريكاران الى القرية التى ولد فيها .. ولم يكن له فيها ولد ، كما لم يكن له أى أمل فى أن يرزق من زوجته ولدا ، بعد عشرة طويلة دون نسل .. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان فقد ولدت زوجته قبل مضى العام ، ولداً ثم ماتت ..

وغمر قلبه لأول وهلة استياء شديد لمرأى طفله الصغير ، وكان فى أطواء ذهنه شك حانق مغيظ ، فى ان هذا الطفل انما جاء ليغتصب مكان السيد الصغير فى قلبه الحزين ،

وذهب تقديره للأمور الى ان فرحته بولده ، بعد ان حدث ما حدث ، لابن سيده ، اساءة بالغةلا تغتفر ، ولولا أن له اختا أرمل ، تبنت الطفل ، بعد موت أمه ، وعنيت به ، لكان من المحتمل ألاَّ يعيش ..

ولكن تغييراً تدريجياً اخذ يطرأ على ذهن ريكاران ، فقد حدث أمر رائع عجيب .. وذلك حين شرع هذا الطفل يحبو بدوره ، ويغامر بالخروج من البيت ، فى التواء ودوران خبيثين ، وزاد على ذلك ، ما اخذ يبدو من مخايل ذكائه وادراكه ، فى تمكنه من التسلل دون التعرض للخطر . ثم صوته ، وضحكاته ، وبكاؤه وغمزاته .. هى نفسها التى يعرفها ريكاران حق المعرفة فى سيده الصغير ... كان يحدث فى بعض الأحيان ان يصغى الى بكاء الطفل ، فاذا قلبه يخفق بشدة بين أضلاعه ، ويخيل اليه ، ان سيده الصغير ، يبكى فى مكان مجهول من عالم الموت ، لأنه ما يزال يبحث عن « كانا » العزيز .

وما هى الا فترة ، حتى اخذ « فيلنا » ـ وهو الاسم الذى أطلقته اخت ريكاران على الطفل الجديد ـ يتكلم ، فقد تعلم ان يقول بلهجة الأطفال ولغتهم : « ماما » و « بابا ». وحين سمع ريكاران هذه الأصوات التى الفها ولم يعد يسمعها منذ فارقه السيد الصغير .. إنكشف له السر وأزيح الحجاب وأصبح لا شك عنده فى ان السيد الصغير ... لم يستطع ان ينسى « كانا » ولهذا فقد ولد مرة اخرى فى بيته الحبيب .

وكانت البراهين الثلاثة التى تؤيد هذه الفكرة فى منطق ريكاران أقوى من ان يدحضها اى نقاش أو نزاع .

(١) فالطفل الجديد ، قد ولد بعد وفاة سيده الصغير مباشرة .

(٢) وزوجته لم تكن قط تتمتع بالقدرة على أن تنجب له طفلا وهى فى منتصف العمر .

(٣) والطفل الصغير يمشى بخطوات مرتعشة مهتزة ، وينادى « بابا .. وماما » .

وبعد كل هذا ، فلم تكن لريكاران من حاجة الى دليل جديد ، يؤيد ان هذا الطفل ، هو نفسه قاضى المستقبل ، الذى بشر به ذات يوم مضى ام سيده الصغير ..

وتذكر ريكاران عندئذ ، تلك التهمة الرهيبة التى وجهتها اليه أم الطفل المفقود . فهتف يقول لنفسه فى حيرة وعجب ... « آه .. صدق قلب الأم .. بلى .. فقد كانت تعلم أنى سرقت ابنها » .

وحين بلغ منطقه هذه النتيجة ، ملأ جوانحه الأسى والندم على إهماله وتهاونه فى المحافظة على السيد الصغير ..

ولم يتردد بعد ذلك فى ان يكرس حياته كلها ، جسما وروحا ، ليجعل من نفسه خادما وفيا امينا للطفل الجديد . وبدأ يربيه كما لو كان ابناً لرجل وجيه ثرى . فاشترى له عربة ، وصديريا اصفر من الحرير ، وقبعة موشاة بالذهب ، واخذ مصوغات زوجته وحليها ، الى الصائغ حيث صاغ له منها أساور وخلاخيل كتلك التى كان يتحلى بها الطفل السيد ... وحرص على ألاَّ يسمح للطفل بان يلعب مع أى طفل من اطفال الجيران ، وأصبح هو نفسه رفيقه الوحيد ، ليلا ونهارا ، وعندما كبر الطفل وترعرع ، أصبح مدللا لامثيل لخيلائه وتيهه بالملابس ، وزخارفه وحليه ، حيث كان اطفال القرية يسمونه « صاحب السعادة » كلما ارادوا ان ينادوه، ثم ينفضون عنه ساخرين متهكمين ، بينما ذهب عقلاء القرية وكبارها الى ان ريكاران مهووس بالطفل الى حد الجنون ..

وأخيراً ، حان الوقت الذى لابد فيه من إدخال الصبى المدرسة ، فلم يكن من ريكاران الا ان باع قطعة الأرض الصغيرة التى لا يملك سواها .. وذهب الى كلكتا ، حيث استطاع أن يجد ـ فى صعوبة كبيرة ـ عملا كخادم فى احد البيوت ، ثم أدخل فيلنا الى المدرسة ، ولم يدخر بعد ذلك جهدا ولا مالا فى ان يؤمن للصغير ، افضل المدارس ، واجمل الملابس ، واحسن الطعام .. بينما كان هو نفسه ، يعيش اياما كلها ، على حفنة من الأرز ، وهو يسر لنفسه . « يا سيدى الصغير .. يا سيدى الصغير الحبيب ، لقد أحببتنى الى الحد الذى جعلك تترك كل شىء وتجىء الى بيتى .. تالله لن تتعرض لأى إهمال او تهاون منى بعد اليوم .. » .

وانقضت اثنتا عشرة سنة على هذا المنوال ، وأصبح الصبى الآن قادرا على ان يكتب ويقرأ جيدا . وكان فتى ذكيا ، جميل الطلعة ، يتمتع بصحة سليمة قوية ، يهتم كثيرا بمظهره الشخصى ، ويعنى ابلغ العناية بتصفيف شعره . يميل الى التبذير والإسراف ، ينفق كل ما يقدمه له ريكاران من مال ، على ملاذه ومباهجه .. ولم ينظر قط الى ريكاران باعتباره أبا ، لأن هذا ، وان كانت فيه عاطفة الأبوة وحنانها ، إلاَّ ان مسلكه نحوه كان مسلك خادم لا أكثر ولا أقل . وزاد الأمر سوءا ان ريكاران اخفى عن كل انسان انه هو شخصيا

والد ذلك الطفل المدلل الجميل . وكان الطلاب الذين يسكنون مع فيلنا ، فى منزل الطلبة ، يدهشون كثيرا ، وقد يسخرون بسجايا الريف وعاداته التى يتحلى بها ريكاران .. ومن يدرى فقد لا يكون من المستبعد ان فيلنا نفسه ، كان يشارك رفاقه هذه الدهشة والسخرية ، ولكن ليس من شك مع ذلك فى ان الطلاب ، جيمعا ، كانوا يضمرون فى اعماق قلوبهم حباً بالغاً ، وإعجاباً كبيراً بذلك القروى العجوز ، الطيب القلب ، وفيلنا نفسه كان يحب ريكاران دون ريب ، ولكن فى شيء غير قليل من معنى التنازل والتلطف والعطف ..

وحين تقدمت السن بريكاران ، وأدركته الشيخوخة بضعفها وهزالها ، أصبح مستخدمه ، يجد عليه الكثير من الهفوات والأخطاء ، وقد كان يحرم نفسه من الغذاء الضرورى فى سبيل الصبى ، بحيث زاد ذلك من هزاله وضاعف من عجزه عن القيام بكثير من واجباته ، فأمسى كثير النسيان ، يغلب عليه الكسل ، وتستحوذ على ذهنه الغفلة والذهول ، بينما كان ما يتوقعه منه سيده ، هو ان يؤدى نفس الواجبات التى يضطلع بها خادم نشيط قوي . وبدا واضحا ، انه لم يعد يستطيع ان يقبل منه اى عذر على اية هفوة او خطأ ، وزاد الأمر تعقيدا ، ان النقود التى جاء بها ريكاران بعد ان باع قطعة الأرض قد نفدت ولم يبق منها إلاَّ القليل ، فيما ظل الصبى ، دائم التذمر والشكوى من حالة ملابسه ، كما ظل دائم الالحاح فى طلب المزيد من المال .

* * *

واخيرا اتخذ ريكاران فى مشكلته قرارا حاسما . فقد ترك عمله وترك شيئا من المال لدى فيلنا . وهو يعده -بأنه سيعود بمجرد ان يفرغ من آداء بعض المهام فى قريته ، وانطلق لتوه ، الى البلدة التى يعمل فيها آنوكول قاضيا ، وكانت زوجته لا تزال عاكفة على احزانها ، لأنها لم ترزق طفلاً آخر ، بعد ذلك الذى فقدته ذات يوم منذ زمن بعيد ...

وفى ذات مساء ، كان آنوكول ، جالساً يستجم ، بعد يوم حافل بالقضايا فى المحكمة ، وكانت زوجته تساوم دجالا متسولا ، فى الثمن الفادح ، الذى يطلبه ، لنوع من الأعشاب يؤكد لها أنه يضمن لها ان تحمل وتلد طفلا .

وسمع آنوكول فجأة اصواتا ترتفع بالتحية والترحيب فى الفناء ، فأسرع يرى من القادم .. واذا هو أمام خادمه القديم وجها لوجه ، ورق قلب القاضى ، للرجل العجوز الذى خدمه دهرا فرحب به ـ واخذ يسأله عن هذا الأمر أو ذاك ثم عرض أن يعيده الى خدمته اذا شاء .

ولكن ريكاران ، ابتسم ، واجاب قائلا : ـ

ـ « كل ما أريده يا سيدى هو ان اقدم خضوعى لسيدتى ... » .

ولم يتردد آنوكول فى ان يصحب ريكاران الى داخل المنزل . ولكن زوجته لم تستقبله بالحراراة التى استقبله بها سيده القديم . غير أن ريكاران لم يلتفت لما ظهر من فتورها ، بل ضم يديه متوسلا ، ثم قال : ـ

ـ « لم يكن نهر بادما ، هو الذى سرق الطفل يا سيدتى .. وانما السارق هو أنا ...» .

وهتف آنوكول : « يا الهى .. ماذا تقول ؟ واين هو ؟ » .

وأجاب ريكاران :

ـ « معى وسأجيئكم به بعد غد .. » .

وكان اليوم المعين ، يوم الأحد ، ولم تكن محكمة القاضى مفتوحة ، ومنذ الصباح الباكر . كان الزوج والزوجة يحملقان فى قلق وترقب فى الطريق ، ينتظران وصول ريكاران .

ووصل فعلا ، فى الساعة العاشرة ، يقود فيلنا فى يده .. ولم تكد زوجة انوكول ترى الصبى ، حتى اخذته بين ذراعيها ، وضمته الى صدرها ، وقد جنت لهفة وحنينا ، وانفجرت تبكى ، وتضحك ، وتتحسسه ثم تقبل شعره وجبهته وتحدق فى وجهه بعينين جائعتين ملهوفتين .

وكان الصبى وسيما ، جميل القسمات الى حد بعيد ، وقد تألق فى ملابسه وهندامه ، كأنه ابن رجل من كرام القوم وعظمائهم . فأحس زوجها بقلبه يفيض حنانا وحبا .. ومع ذلك ، فإن روح القاضى ، فى نفسه لم تفارقه فى هذه اللحظة ، فسأل ريكاران :

ـ « هل لديك اى برهان أو دليل على انه ابنى ؟ » .

وقال ريكاران :

ـ « برهان !!.. كيف يمكن ان يكون لدَّى برهان على عمل كهذا ؟ الله وحده هو الذى يعلم انى انا ، ولا احد سواى فى هذا العالم ـ قد سرقت الولد . »

وحين رأى آنوكول لهفة زوجته وحنانها وتعلقها بالصبى أدرك سخف مطالبة الرجل بأى برهان .. وقدر ان الأخلق به ان يصدقه .

وعلى اية حال فمن اين لعجوز ، مثل ريكاران ، ان يحصل على مثل هذا الصبى ؟!.. وما الذى يجعل خادمه المخلص القديم يخدعه مثل هذه الخدعة ؟!.. ثم لا جدال بعد ذلك فى أنه لا يجرى وراء مغنم من أى نوع ، ولكنه لم يستطع ان ينسى فى هذه اللحظة تلك الزلة التى سبقت من خادمه العجوز ، فهتف :ـ « اسمع يا ريكاران ... يجب ألاَّ تبقى هنا منذ اليوم » .

وقال ريكاران فى صوت يخنقه الحزن والأسى : ـ

ـ « واين اذهب يا سيدى ؟ لقد طعنت فى السن ، وعجزت عن العمل .. ومن الذى يقبل مثلى خادما بعد هذا العمر ؟ » .

وقالت السيدة :

ـ « دعه يبقى .. سيسر ولدى لذلك ، ولقد عفوت عنه » .

ولكن ضمير القاضى فى شخصية آنوكول ، لم يسمح له بهذا ، فقال :

ـ « كلا .. لا سبيل الى العفو عما بدر منه .. » .

وانحنى ريكاران على الأرض ، وانكب على قدمى آنوكول وهو يبكى قائلا :

ـ « سيدى .. دعنى اجلس معكم .. كلا .... كلا ... لست انا الذى فعل ذلك ... كلا .. انه الله .. الله يا سيدى » .

وازدادت دهشة ضمير آنوكول حين سمع ريكاران يحاول ان يبرر فعلتـه على هذا النحو ، فعاد يقول : ـ « كلا ... لا استطيع ان اغتفرها لك ولا استطيع ان اثق بك بعد اليوم .. لقد كنت غادرا خداعا . ولاسبيل الى ان نأمن جانبك قط ، ونهض ريكاران على قدميه ثم قال :

ـ « لست أنا الذى فعلها يا سيدى .. » .

ـ « ومن هو اذن ؟ » .

ـ « القدر يا سيدى .. قدرى ، وحظى .. » .

ولكن كان من المتعذر كليا ، على رجل مثقف كالقاضى آنوكول ان يقبل مثل هذا المبرر الغامض ، ولهذا فقد ظل لا يتزحزح عن رأيه .

وحين علم فيلنا ، انه ابن القاضى الثرى ، وليس ابناً لريكاران . غضب فى أول الأمر ، وقال فى نفسه انه ظل مخدوعا طيلة هذه السنوات ، عن حقيقة والده ، ولكن حين رأى ريكاران غارقا فى مأساته واحزانه ، قال للقاضى :

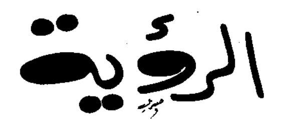
ـ « يا أبى .. اعف عنه .. وحتى اذا كنت لا تسمح له بالبقاء معنا فامنحه على الأقل ، راتبا ، صغيرا كل شهر .. » .

وما كاد ريكاران يسمع هذه الكلمات من الفتى ، حتى ألجم ، ولم يعد يستطيع ان ينبس بحرف ، وبعد ان ألقى نظرة اخيرة على وجه ولده ، وقدم طاعته لسيده وسيدته خرج ، وانساب بين الألوف من الآدميين على هذه الأرض .

وفى نهاية الشهر أرسل اليه آنوكول مبلغا صغيرا من المال فى قريته ، ولكن نقوده عادت اليه لأن البريد لم يجد فى القرية رجلا يسمى ريكاران ..

❊ ❊ ❊





عندما كنت زوجة صغيرة جدا ، ولدت طفلا ميتا ، واقتربت انا نفسى من حافة الموت ، واستعدت صحتى ببطء شديد ، واخذت قوة ابصارى تضعف يوما بعد يوم .

وكان زوجى فى هذه الفترة يدرس الطب ، فلم يكن مما يأسف له إطلاقا ان يجد فرصة لتجربة معلوماته الطبية معى ، ولم يتردد فى ان يعالج عينيَّ بنفسه .

وكان اخى يستعد لامتحانه فى كلية الحقوق ، وقد جاء يوما لزيارتى فأفزعته حالتى فقال لزوجى :

ـ ماذا تفعل ؟! انك تدمر عينـي كومو ... عليك ان تستشير طبيبا جيدا فى الحال .

ولكن زوجى اجابه بلهجة حانقة :

ـ ولماذا ؟ ما الذى يستطيع ان يفعله طبيب جيد اكثر مما افعله انا ؟ الحالة بسيطة جدا ، والعلاج معروف تماما .

واجابه اخى بازدراء :

ـ أظنك لا ترى فرقا بينك وبين استاذ فى الكلية التى تدرس فيها .

واجابه زوجى غاضبا :

ـ اذا كنت متزوجا ، وكان هناك نزاع حول ممتلكات زوجتك ، فانك لا تعمل بنصيحتى فيما يختص بالقانون .. فلماذا ، اذن ، تجيئنى الآن لتنصحنى فيما يختص بالطب .

وعندما كانا يتشاجران ، كنت اقول لنفسى : انها دائما الأعشاب المسكينة هى التى تقاسى عندما تقع الحرب بين فيلين . وهذا نزاع بين هذين الاثنين .. وعليَّ انا ان اتحمل الحريق .

هذا ، الى انه قد بدا لى ايضا ، انه ليس من الصواب فى شيء ان تتدخل عائلتى - وقد زوجتنى - .. اذ قد اصبحت سعادتى وشقائى لا تعنى احدا سوى زوجى . ومنذ ذلك اليوم ، وبسبب مشكلة عينيَّ التافهة توترت العلاقة بين زوجى وأخى .

ومما ادهشنى ان أخى ، جاء بعد ظهر أحد الأيام وزوجى غائب ، ومعه طبيب ليرانى .. وقد فحص عينيَّ بعناية فائقة ، وبدا حزينا ، وقال :

- أى مزيد من الاهمال سيكون خطرا .

وكتب وصفة ، سرعان ما ارسل اخى لإحضار الأدوية التى وصفها .. وعندما ذهب الطبيب الغريب ، رجوت اخى ألاَّ يتدخل . اذ لم اكن اشك فى انه لن ينتج من زيارة هذا الطبيب الا الشر .. ولقد دهشت من تصرفى ... لم ادر كيف وجدت تلك الشجاعة التى تحدثت بها الى اخى بهذا الشكل ؟.. كنت اخافه دائما ولا اجرؤ على ان يكون لى رأي غير رأيه .. ولاشك ان اخى قد دهش لجرأتى ، وقد التزم الصمت لحظات ثم قال :

- حسنا ، يا كومو .. سوف لن استدعى الطبيب مرة اخرى .. ولكن عندما يجيء الدواء فلابد ان تستعمليه .

وذهب اخى .. وجاء بالدواء من الصيدلية فأخذته - زجاجات .. ومساحيق ، ومعها الوصفة ، وكل شيء .. والقيت به فى البئر .

وكان زوجى قد حنق وغضب لتدخل أخى وأخذ يعالج عينيَّ بمزيد من العناية والجهد .. واخذ يجرب كل نوع من العلاج .. وكما اقترح فقد عصبت عينيَّ ، ووضعت النظارة الملونة التى جاءنى بها .. وواظبت على وضع النظارة ... واستعملت جميع المساحيق ... بل شربت ايضا زيت كبد الحوت ، رغم ما يسببه لى من تقزز وغثيان ، وفى كل مرة يعود فيها من المستشفى ، كان يسألنى متلهفا :

- كيف تشعرين ؟

وكنت اجيبه :

- اوه .. أحسن كثيرا .

ولاشك انى اصبحت اختصاصية فى خداع نفسى وايهامها .

وعندما كنت اجد ان انذراف الدمع من عينيَّ يزداد يوما عن يوم ، فإنى اروح عن نفسى بترجيح فكرة أن من الأفضل ان تتخلص عيناى من هذا السائل الردىء ، فاذا لاحظت قلة تدفق الماء عن المعتاد ، فانى اعزو ذلك الى مهارة زوجى وخبرته .

ولكن بعد فترة من الوقت اصبح الألم لا يطاق ، وقد تلاشت قوة الابصار ، كما استمر الصداع يلازمنى ليلا ونهارا .. ولقد رأيت الى اى حد اصبح زوجى متوجسا وقلقا . واستنتجت من سلوكه انه اصبح يفضل ان يعرضنى على طبيب فاحتلت بالتلميح انه قد يكون مما يحسن ان يستدعى احدهم .

وارتاح للفكرة بحيث بدا وكأنه يتنفس الصعداء . فاستدعى ـ فى نفس اليوم ـ طبيبا انجليزيا ... ولا اعرف ما الذى دار بينهما من حوار ، ولكنى لاحظت ان الطبيب قد تحدث اليه بنبرة حادة .

والتزم زوجى الصمت بعد ذهاب الدكتور .. فاخذت يديه بين يدىَّ وقلت :

ـ ما اشد قسوته وسوء سلوكه ؟... لماذا لم تستدع طبيباً هندياً .. كان ذلك افضل كثيراً دون شك ، اتراك تظن ذلك الرجل يعرف اكثر مما تعرف انت عن حالة عينيَّ ؟

ولكن زوجى ظل يلتزم صمتا عميقا للحظات ، ثم قال بصوت مشروخ :

ـ كومو .. ان عينيك تحتاجان الى عملية جراحية .

فتظاهرت بأنى عاتبة عليه لاخفائه الحقيقة عنى كل هذا الوقت الطويل ، ثم قلت :

ـ لقد كنت تعرف هذه الحقيقة طيلة هذا الوقت ، ومع ذلك لم تقل لى شيئا ، اتظننى طفلا اخاف من عملية .

وبذلك استعاد زوجى رباطة جأشه ثم قال :

ـ ما أقل الرجال الذين يتمتعون بالبطولة الكافية ، فلا يهتزون اذا توقعوا عملية جراحية .

فضحكت . وقلت :

ـ هو ذاك ، بطولة الرجال أمام زوجاتهم فقط .

فنظر إلىّ آسيا حزينا وقال :

ـ صدقت تماما ... فنحن الرجال تافهون حقا .

وضحكت لما يظهره من جدية ومسايرة وقلت :

ـ أمتأكد أنت ، أنكم ـ معشر الرجال ـ تبزوننا تفاهة .

وعندما جاء أخي يزورني ، أخذته جانبا . وقلت :

ـ ما أبرع ذلك الطبيب الذى جئتني به ... فقد أستفدت من علاجه ، كما لم أستفد من أي علاج آخر .. ولكن ما آسف له هو أني أستعملت المحلول ، بدلا من الذرور ، ومنذ ارتكبت تلك الغلطة ، ظلت الحال تزداد سوءا ، واليوم أصبحت العملية ضرورة محتومة !

وقال أخي :

ـ لقد كنت تحت علاج زوجك ... ولهذا فقد أقلعت عن المجيء لزيارتك .

فأجبت :

ـ لا .. فى الحقيقة كنت طيلة الوقت أعالج نفسي ـ سرا ـ على طريقة من توجيهات طبيبك .

يالله ... أيةّ أكاذيب يتحتم علينا ـ نحن النساء ـ أن نقترف ... حين نكون أمهات نكذب لندهده صغارنا ..، وحين نكون زوجات نكذب لنهدىء ثائرة آباء هؤلاء الصغار ... ولا نتحرر قط من أسر هذه الضرورة .

واستطاعت خدعتي أن تقرب من مشاعر كل من زوجي وأخي تجاه الآخر .. فلم يعف أخي نفسه من الشعور بالذنب ، لأنه حذرني من أن أفشي سر الطبيب الذى جائني به لزوجي ، بينما أسف زوجي لأنه لم يأخذ بنصيحة أخي منذ البداية .

وأخيرا ، بموافقة الأثنين ، جاء طبيب انجليزى قام باجراء العملية لعيني اليسرى . .. التى كانت ـ على اية حال ـ من الضعف والخطورة ، بحيث لم تكن لتتحمل عنف العملية ... فما اسرع ما خبا وتلاشى البصيص الضعيف من القدرة على الإبصار .. ولم تمض الا فترة قصيرة من الزمن حتى غرقت العين الأخرى فى الظلام .

وجاءني زوجي ذات يوم وجلس الى جانبي فى السرير وقال :

ـ كلا ... لم اعد استطيع ان اتوقع اكثر مما فعلت حتى اليوم .. كومو .. انا .. انا هو الذى دمر عينيك .

واحسست ان صوته يختنق بالدموع .. فاخذت يده بين يديَّ الاثنتين وقلت :

ـ لماذا ؟... انك لم تفعل الا ما كان ينبغي ان يفعل . لقد تصرفت فى وضع تملك وحدك

حق التصرف فيه .. فتصور ـ لو ان طبيبا اجنبيا ، جاء واخذ منى حاسة الإبصـار ـ فما الذى كان يمكن ان يعزينى فى الكارثة ؟. اما الآن فإنى اشعر ان الخير كان فيما وقع فعلا .. وعزائى بل وهنائى ، أنى اعلم أنى فقدت عينيَّ على يديك .

ثم قلت :

ـ عندما وجد (رامتشاندرا) ان زهرتى اللوتس اللتين لم يجد سواهما اقل مما ينبغى ان يُقدم ـ لعبادة الله ، لم يتردد فى ان يقدم عينيه ، بدلا من الزهرتين ، وها أنذا اقدم عينيَّ قرباناً لالهى .

ومنذ اليوم .. عندما تقع عيناك على شىء يمتعك ويسرك ، فان عليك ان تصفه لى ، وسأتزود بكلماتك واحتفظ بها فى صدرى هدية مقدسة من عينيك .

ولعلى لم اقل كل هذا بالطبع ، اذ قد يتعذر ان يقال كلام كهذا فى تلك اللحظة ، ولكنى ظللت ألوك كلمات كهذه طوال ايام وايام .. وحين يعتصر قلبى الحزن ، وتطبق على نفسى الحسرة والأسى ، او عندما تخبو شعلة اخلاصى ، واواجه رهبة قدرى التعس فانى لا اجد الا هذه الجمل من الكلام ، ارددها واحدة بعد الأخرى ، كما يردد الطفل قصة سمعها فحفظها . وبهذا يتاح لى ان اتنفس ، وان املأ مشاعرى بنسمة السلام والحب .

وفى نفس الوقت الذى كان يدور فيه الكلام بيننا ، قلت ما فيه الكفاية ، لأكشف عما كان مكنوناً فى قلبى .

وقال زوجى :

ـ كلا .. يا كومو .. لا سبيل الى اصلاح ما تسببت فيه من أذى بحماقتى وجهلى .. ولكنى استطيع قطعا ان احقق شيئا واحدا .. استطيع ان اظل الى جانبك ، وان اعوضك عن حاجتك للرؤية بكل ما فى طاقتى من جهد .

ـ ابدا .. لا سبيل الى شىء مما تقول .. اذ لن اطلب منك ان تجعل من بيتك مستشفى للعمياء .. هناك شىء واحد ليس غير ، يجب ان يتم .. يجب ان تتزوج مرة اخرى .

وحين ظللت احاول ان اوضح له أن هذا هو ما ينبغى عليه أن يقوم به ، كان صوتى يحتبس ويتكسر ، وسعلت محاولة أن أخفى مشاعرى ، ولكنه انفجر يقول :

ـ كومو .. أعرف أنى أحمق ... بل أعرف أنى مغرور متبجح ، بل وكل ما يمكن ان ينطبق

عليَّ من نعوت .. ولكنى لست نذلاً .. فأقسم لك بجلال آلهة آبائى وعائلتى انى لن أتزوج مرة اخرى ولتحق بى اللعنة التى تحيق بقاتل ابيه اذا نكثت بقسمى فتزوجت .

يالله ما كنت لأسمح له قط أن يقدم على هذا القسم الرهيب .. ولكن الدموع كانت تخنق صوتى ، ولم استطع ان أنبس باى كلمة ، مع ما غمر مشاعرى من بهجة وامتنان .. دفنت رأسى الأعمى فى وسائدى .. واجهشت أبكى .. وأبكى .. وأخيراً عندما نضب ينبوع الدمع من عينيَّ .. أخذت رأسه وضممته الى صدرى واخذت اقول :

ـ لماذا بالله اقدمت على هذا القسم الرهيب ؟ اتراك تحسب انى طلبت اليك ان تتزوج لمجرد رغبتى فى امتاعك وارضائك ؟ ... لا .... لا لقد كنت فى الحقيقة افكر فى نفسى ... إذ تستطيع هذه الزوجة أن تقوم بما لم اعد استطيع انا القيام به من الواجبات بعد أن فقدت عينيَّ .

فاحتدم زوجى وأسرع يقول :

ـ واجبات ؟.. هل قلت : واجبات ؟؟ هذه التى يستطيع ان يقوم بها الخدم ... ام تظنين أنى مخبول الى الحد الذى اسمح معه بمجيء جارية فى بيتى ، تشارك فى الجلوس على العرش الذى تجلس عليه آلهتى ..

واذ سمعته ينطق كلمة : (آلهة) وجدته يأخذ وجهى بين يديه ، ويطبع بين حاجبيَّ ، حيث تقع العين الثالثة المفتوحة ـ عين الحكمة والعقل ـ قبلة ، احسست معها بمشاعر القداسة والطهر والسمو .

ووجدتنى اقول بينى وبين نفسى ..

ـ حسن ما أرادته لى الأقدار .. فلم يعد فى وسعى منذ اليوم ان اخدمه فى عالم تدبير المنزل السفلى .. بل سوف ارتفع الى ما هو أسمى واعظم .. وسأجيئه من هناك .. من عليين .. بهبات البركة والدعة .. ولا مكان للخداع معى بعد اليوم . وقد إنتهى ـ والى الأبد ـ كل ما عرفت فى الماضى من حياتى ، من صغار وخسة ورياء ..

وعلى طول اليوم .. كل اليوم ... ظللت اعيش رحى المعركة التى تدور فى داخلى ... تلك الفرحة بفكرة أنه قد اصبح مستحيلا على زوجى ـ بعد هذا القسم الذى اقدم على الالتزام به ـ أن يتزوج مرة اخرى قد امتدت لها الجذور فى اعماق قلبى بحيث لن استطيع

اقتلاعها ... ولكن (الآلهة) الجديدة ، التى تربعت على عرشها فى داخلى قالت :

ـ قد يأتى يوم ، يكون فيه من الأفضل لزوجك ان يحنث فى قسمه فيتزوج مرة اخرى .

ولكن المرأة فى كيانى تقول :

ـ محتمل ... ولكن القسم هو القسم ... ولا سبيل الى التحلل منه .

فتجيبها الالهة :

ـ ولكن ينبغى أن يكون هذا مدعاة لارتياحك .

فتجيبها المرأة :

ـ صدقت ... وحقا ما تقولين .. ولكن سيان فى الحالين مادام قد التزم بهذا القسم .

ومرة بعد أخرى ظلت هذه القصة تدور فى نفسى بهذا الحوار ، إلى أن التزمت الالهة الصمت فى النهاية ، وأطبق علىّ ظلام خوف رهيب .

أما زوجى ، فقد أصبح لا يسمح للخدم بأن يقوموا باداء الواجبات التى كنت أضطلع بها ... بل أخذ على عاتقه أن يقوم هو نفسه بادائها ... وقد ملأ نفسى بهجة فى البداية أن أشعر باعتمادى كليا عليه ... كان ذلك هو المبرر للاحتفاظ به الى جانبى خصوصا وأن رغبتى فى بقائه معى ، قد أخذت تتزايد بعد أن فقدت نور عينى ، كانت الحواس الأخرى فى كيانى تحاول أن تستحوذ على الحصة التى فقدتها عيناى من محضره وشخوصه أمامى ... كنت أشعر فى كل مرة يغيب فيها عنى ، كأنى معلقة فى الفضاء ، وكأنى أفقد أحساسى بوجود أى شىء محسوس من حولى .

كنت قد تعودت فى الأيام التى خلت ... عندما كان زوجى يعود متأخرا من المستشفى أن أفتح نافذتى وأظل أحملق فى الطريق ... وكان ذلك الطريق ، هو الصلة التى تربط دنياه بدنياى ... أما الآن ، وقد فقدت هذه الصلة بالعمى ، فأن جسمى كله يتحفز للبحث عنه والتماس عودته ... لقد انهدم ذلك الجسر الذى كان يوحِّد ما بيننا ، وانشقت هذه الهاوية التى يستحيل تجاوزها ... والتى تبدو وكأنها تتثاءب كلما أبتعد عنى ... فلم أعد أملك إلا أن أنتظر تلك اللحظة التى يعبر فيها عائدا إلىّ من الشاطىء الآخر .

ولكن لا خير ، فى هذا الشوق المتوتر ، وهذا الاتكال المطلق على المدى الطويل .. اذ ان الزوجة بطبيعتها عبءٌ يثقل كاهل الرجل ، فاذا اضيف اليه عبء هذا العمى فان ذلك خليق بان يجعل حياته اصعب من ان تطاق . ولذلك فقد عاهدت نفسى ان اتجرع كأس الآلام وحدى ، وان لا ألف حياة زوجى بما يطبق على حياتى من ظلام .

وخلال فترة قصيرة من الزمن استطعت ان ادرب نفسى على اداء جميع الواجبات المنزلية ، مستعينة بحواس اللمس ، والسمع والشم .. والواقع انى ما لبثت ان اكتشفت انى استطيع ذلك باداء اكثر مهارة مما كنت افعل من قبل .. اذ كثيرا ما يزيغ البصر اكثر مما يهتدى . وبهذا ادركت ان جميع حواسى الأخرى تعمل على تعويض حاسة الابصار التى فقدتها .

وعندما اكتسبت الخبرة بالتدريب المتواصل ، لم اعد اسمح لزوجى ان يقوم بواجبات تدبير المنزل ، وفى البداية كان يشكو بمرارة ، من انى احول دون محاولته التكفير عن ذنبه ، ولكن هذا لم يقنعنى بالكف عن المحاولة من جانبى ... اذ بغض النظر عما يقوله ، فقد كنت اشعر أنه يكون اكثر ارتياحا ، عندما يجد ان هذه الواجبات قد ازيحت عن كاهله . وإنى لأدرك ان اى زوج يقدر له ان يخدم عمياء يوميا لا يمكن ان يشعر بالسعادة والارتياح .

* * *

وقد انتهى زوجى اخيرا من دراسته الطبية ، وانتقل من كلكتا الى احدى المدن الصغيرة ، ليعمل كطبيب امتياز ، وهناك فى قلب الريف ، احسست رغم العمى - بمتعة العودة الى احضان امى ، وانى لأذكر انى قد غادرت القرية التى ولدت فيها الى كلكتا عندما كنت فى الثامنة من عمرى . ومنذ ذلك اليوم وخلال السنوات العشر التى قضيتها فى المدينة الكبيرة ، كانت ذكرى تلك القرية قد اخذت تخبو وتتضاءل . وطوال المدة التى كنت اتمتع فيها بالقدرة على الابصار ، كانت كلكتا ، بحياتها النشطة ، تحجب عن ذهنى ذكرى أيام طفولتى .. ولكن بعد ان فقدت عينيَّ ادركت لأول مرة ، ان كلكتا اذا كانت

تبهر النظر فانها لا تملأ القلب .. والآن ، وانا عمياء ، فان رؤى طفولتى ، قد اخذت تسطع فى ذهنى كالنجوم التى تتلامح واحدة بعد الأخرى حين يدنو المساء فى نهاية النهار .

وحين غادرنا كلكتا ، الى « هارسينجبور » كنا فى بداية اكتوبر ، وكان المكان جديدا بالنسبة لى ، ولكن عبير الريف واصواته كانت تحيط بى وكأنها تعانقنى . كانت نسمات الصباح وهى تهب محملة بأريج الأرض وقد فتقها المحراث .. والرائحة العبقة اللطيفة من ازهار الخردل وهى تتفتح مع اولى ابتسامات الفجر .. وصوت الناى ، ينفخ فيه الرعاة ، يترامى الى السمع من بعيد ...

وحتى الضجة المتكسرة التى تثيرها حركة عربات الثيران وهى تتدحرج على طريق القرية ، كل ذلك كان يملأ حياتى مباهج وافراحا .. وذكرى حياتى الماضية ، بكل ما حفلت به من نكهة وما تردد فيها من اصوات ، اصبحت شاخصة مضيئة فى ذهنى ... ولم يكن لعينيَّ العمياوين ان تنكرا علىّ صدق مشاعرى .. لقد رجعت القهقرى ، واخذت اعيش ايام طفولتى بكل متعها وملاذها ... والشيء الوحيد الذى كان غائبا بين هذه المشاهد والرؤى والمشاعر والأحلام هو .. امى ..

كنت استطيع ان ارى بعينيَّ ذهنى ، بيتنا وقد نمت امامه اشجار المانجو الكبيرة على طول بحيرة القرية ، بل لقد كنت استطيع ايضا ان استعيد الى ذهنى صورة جدتى العجوز ، وهى تجلس على الأرض بخصل شعرها المنكوش ، تدفىء ظهرها باشعة الشمس ، وهى تصنع كرات العدس الصغيرة التى تجفف لتستعمل فيما بعد . ولعلى لم استطع ان اتذكر الترانيم التى اعتادت ان تدندن بها لنفسها بصوتها الضعيف المرتعش . وفى المساء ، كلما ترامت الى سمعى اصوات ثغاء قطعان الماشية وخوار الأبقار ، اكاد ارى امى وهى تنتقل بين الحظائر ، والمصباح المضىء فى يدها . أما روائح العلف الندى ولذعة دخان التبن وهو يحترق ، فقد كنت اشعر انها تترقرق فى اعماق قلبى ، وعن بعد كانت تلاحقنى على سمعى رنين اجراس المعبد يحملها النسيم من ضفة النهر .

ان مدينة كلكتا تروع القلب وتفتن النفس بما يعج فيها من جلبة وضوضاء ، بحيث تفقد كل مسؤوليات الحياة وواجباتها الجميلة ، نضارتها ونبل اهدافها .. وانى لأذكر الآن ، ذلك اليوم الذى دخلت علىَّ فيه احدى صديقاتى وقالت :

ـ كومو ... ما الـذى يجعلك لا تغضبـين ؟ لو ان زوجـى ، يعاملنـى ، كما يعـاملك زوجك ، فانى لن انظر الى وجهه الى الأبد .

ولقد حاولت ان تسخطنى على زوجى ، لأنه ظل فترة طويلة لا يستدعى طبيبا ، فلم اجد ما اقوله لها سوى :

ـ ان العمى الذى اصبت به ـ فى حد ذاته ـ فيه الكفاية من الشر .. فلماذا ازيد عليه واجعله اكثر شرا بان اسمح للكراهية والحقد ان يشتعلا فى نفسى ضد زوجى ؟!

ولم تحر صديقتى جوابا .. ولكنها هزت رأسها فى كثير من الازدراء ، وهى تسمع مثل هذا الكلام من شفتى فتاة مثلى .. ولقد غادرتنى ، وليس لى فى نفسهـا غـير التقـزز والضيق .. ولكن ، ايا كانت كلماتى فى ذلك الحوار العابر ، فان كلماتها هى كانت قد تركت ـ دون شك ـ سمومها . ولم يكن لمفعول هذاالسم ان يتلاشى نهائيا من مكمنه فى الروح .

ومن هنا ، يتاح لنا ، ان نرى ان كلكتا ، بالمألوف من قالها وقيلها وثرثرة الناس فيها تعمل على توحش القلب وقسوته ... ولكن عندما عدت الى الريف عادت الى الآمال ومعها دفء الايمان ، وكل ما كنت أومن به فى طفولتى عاد واصبح نضرا مشرقا مرة اخرى . كأن الله سبحانه قد اثرى قلبى ودنياى برحمته فانحنيت لجلاله وقلت :

ـ حسن يا رباه ان تأخذ عينيَّ .. ما دمت معى ولكن .. ويحى ... فلعلى قلت اكثر مما ينبغى ، لقد كانت جرأة منى ان اقول : (انك معى) اذ كل ما كان علىَّ ان اقوله هو :

ـ يجب ان اكون صادقة معك يا رباه ... وحتى حين افقد كل شىء .. فان علىَّ ان اواصل مسيرة الحياة ..

* * *

وفى هذه القرية ، امضينا بضعة شهور سعيدة .. واكتسب زوجى شيئا من الشهرة فى ممارسته لمهنته كطبيب ، ومع الشهرة جاءت النقود .

ولكن للنقود اذاها وشرورها ، وقد لا استطيع ان اشير او اذكر حادثا معينا ، ولكن لأن ادراك العـمي اكثر دقة وحدة من غيرهم من الناس ، فقد كنت اتبين التغير الذى طرأ على زوجى بازدياد الثروة بين يديه .

حين كان اصغر سنا ، كان احساسه بالعدالة اكثر رهفا . فلطالما كان يحدثنى عن رغبته فى مساعدة الفقير عندما يكتسب الخبرة فى ممارسة مهنته ... وكان كثيرا ما يتحدث بازدراء وتقزز عن زملائه الذين لم يكونوا يجسون نبض المريض الفقير قبل ان يتقاضوا أجرهم .

ولكنى الاحظ الفرق الآن ، اذ اصبح جافا الى حد غريب .. فقد جاءته ذات مرة امرأة فقيرة ، وتوسلت اليه ان ينقذ حياة طفلها الوحيد ، فاذا به يرفض . وعندما رجوته ـ انا نفسى ـ ان يجود عليها بهذه المساعدة ، لاحظت انه يستجيب لتوسلاتى ويقوم باللازم دون اى مبالاة او اهتمام ... وعندما كنا اقل غنى مما نحن الآن ، كان زوجى يضيـق او حتى يكره الاشتغال بمسائل المال ، بل كان شريفاً بالغ التدقيق فى هذه المسائل ، ولكن منذ اصبح له رصيد ضخم فى البنك لم يعد يمل قضاء ساعات بطولها مع سماسرة العقار لتحقيق اغراض لن تعود علينا بخير .

الى اين ، يا ترى ، يندفع ؟ وما الذى انتهى اليه هذا الزوج ؟... ذلك الزوج الذى عرفته قبل ان اعمى ؟!.. الزوج الذى قبلنى فى ذلك اليوم بين حاجبيَّ ورفعنى على عرش القداسة والتأليه .. ان اولئك الذين يقذف بهـم الى الحضـيض عاصف مفاجـىء من العاطفة ، يستطيعون ، ان ينهضوا من عثرتهم ، وان يستأنفوا مسيرتهم وفى نفوسهم شحنة جديدة وقوية من الطيبة والنبل ، ولكن اولئك الذين تنضب فى قلوبهم منابع الخلق الكريم يوما بعد يوم .. اولئك الذين تختنق حياتهم الداخلية بتراخ وبطء ، يصلون ـ فى النهاية ـ الى حالة من تبلد فى الاحساس ، وخمود فى المشاعر لا سبيل الى شفائها قط .

إن الانفصال الذى تسبب عن اصابتى بالعمى ، عن زوجى كان انفصالا جسمانيا تافها . ولكن ما يخنقنى الآن أنه لم يعد معى ، حيث وقف فى تلك الساعة عندما علمنا معا انى عمياء .. وذلك هو الإنفصال حقا .

من جانبى ، فإنى ما ازال فى رحاب ذلك الحب الغض والايمان الصلب الكامنين فى

قلبي ، بينما زوجي قد هجر هذه الظلال الندية واخذ يختفي في التيه الجاف المجدب وراء ظمئه المجنون الى الذهب .

ويخالجني الشك احيانا في صدق ما يتجمع في ذهني من ملاحظات .. وقد ارجح انني ابالغ في تقدير الوقائع لأني عمياء ، ولعلي كنت اتقبل الحياة كما اجدها لو لم احرم من عينيّ ، وهذا ، على اية حال ، هو الضوء الذي ينظر به الى مزاجي وتصرفاتي .

في ذات يوم ، جاء الى البيت رجل مسلم عجوز وطلب من زوجي ان يزور حفيدته الصغيرة .. وقد سمعته يقول :

ـ يا سيدي .. إني انسان فقير ، ولكن تعال معي ، وسيجزيك الله خيرا كثيرا ..

فاذا بزوجي يجيبه ببرود قائلا :

ـ ما سيجزيني به الله لا يغنيني شيئا .. اني اريد ان اعرف ما الذي تستطيع ان تفعله انت .

وحين سمعت هذا ، وجدتني اتساءل : لم لم يبتلني الله بالصمم كما ابتلاني بالعمى ؟ فقد زفر الرجل آهة عميقة ، ومشى .. فلم يسعني الا ان ارسل وراءه خادمتي ، وأن اقابله عند الباب لأضع في يده شيئا من المال وأنا أقول له :

ـ أرجو ان تأخذ هذا المبلغ مني ، لحفيدتك الصغيرة ، وراجع طبيبا موثوقا لعلاجها ، ولا تكره ان تدعو لزوجي بالتوفيق .. ومضى الرجل . وقضيت انا اليوم بطوله دون ان أتبلغ طعاما اطلاقا . وحين استيقظ زوجي من نومه بعد الظهر سألني :

ـ لماذا أنت شاحبة الوجه ؟

وكدت اجيبه بما اعتدت أن أجيب به مثل هذه الأسئلة فاقول مثلا : (لا شيء) ولكن أيام الخداع والتضليل قد انتهت ولذلك فقد خاطبته بوضوح :

ـ ظللت اتردد طيلة أيام لأقول لك شيئا ، وكان يصعب أن أفكر فيما ينبغي ان اقوله فعلا .. وحتى في هذه اللحظة قد لا أستطيع ان اوضح ما يدور بذهني ولكني واثقة أنك تعرف ما حدث .. إن حياتنا قد تداعت وتقوضت .

وضحك زوجي ضحكة مغتصبة وهو يقول :

ـ التغير قانون الطبيعة .

ـ أعرف ذلك .. ولكن هناك أشياء خالدة لن تتغير ... وعندئذ قال بنبرة جادة :

ـ هناك نساء كثيرات لديهن أسباب حقيقية لما يعانين من شقاء .. وهناك اخريات محرومات من حب ازواجهن .. أما أنت فانك تجعلين من نفسك شقية بائسة دون اى سبب على الاطلاق .

وهكذا لم يعد لديَّ اى شك فى أن عماى قد زودنى بالقدرة على أن أرى ذلك العالم الذى لن يطرأ عليه أى تغيير .. حقا ... لست كغيرى من النساء ... ولن يفهمنى زوجى قط .

* * *

وظلت حياتنا تسير فى طريقها المألوف الرتيب فترة من الزمن لم تطل ، اذ طرأ ما غير من رتابتها ... حين زارتنا عمة زوجى وكان أول ما قذفت به فى وجهى بعد عبارات الترحيب المعتادة هو قولها :

ـ حسنا يا كومو ... كم هو مؤلم أنك قد أصبحت عمياء .. ولكن لماذا تفرضين مأساتك على زوجك أيضا ؟؟؟ عليك أن تعملى على أن يتزوج زوجة أخرى .

وساد الصمت لحظات ... ولو أن زوجى قال أى كلمة ممازحا .. أو حتى لو ضحك فى وجهها ... لكانت المسألة قد مرت وانتهت ... ولكنه تلعثم ، وتردد ، وقال أخيرا بطريقة بلهاء سخيفة :

ـ أحقا ما تقولين يا عمتى ؟... حقا يا ... لم يكن ينبغى أن تتكلمى بهذا الشكل ؟

ولكن عمته التفتت إلىَّ وقالت :

ـ هل كنت مخطئة يا كومو ..

فضحكت ضحكة فارغة وقلت :

ـ أليس الأفضل أن تسألى مِن هو أقدر على الاجابة ؟؟؟ إن النشال ، لا يستأذن من سوف ينشل جيبه !!!

وقالت هى :

ـ صدقت تماما ..

ثم وجهت الكلام الى زوجى وقالت :

ـ دعنا يا ابانيش ، نتشاور وحدنا فى هذا الموضوع ... فما رأيك ؟

وبعد بضعة ايام ، سمعت زوجى يسألها ، وبحضورى ، عما اذا كانت تعرف فتاة من عائلة محترمة تستطيع ان تجيء لتساعدنى فى أعمال المنزل .. وكان بالطبع يعلم أنى لم أكن أحتاج الى مساعدة أحد فى هذه الأعمال .

فأجابته عمته تقول :

ـ هناك المئات منهن ... عند ابن عمى فتاة فى سن الزواج تماما .. وهى طيبة جدا ... وسوف لا يسر اهلها بشيء كما سوف يسرون لو انهم ضمنوك لها زوجا .

ومرة اخرى صدرت عنه تلك الضحكة المغتصبة المترددة وقال :

ـ ولكنى لم اذكر الزواج قط .

ـ ولكن كيف تتوقع ان تجيء الى بيتك فتاة من عائلة محترمة وتعيش فيه دون زواج .

وسلم زوجى بأن ذلك أمر معقول تماما .. ثم التزم الصمت . ووقفت وحدى داخل هذه الأبواب المغلقة من العمى ، بعد أن ذهب ، وتوجهت الى الله ضارعة ، أن يحفظ زوجى .

وبعد بضعة أيام ، فى عودتى من معبد المنزل بعد ان اديت صلاة الصباح امسكت عمته بيديَّ الاثنتين بتودد حميم وقالت :

ـ كومو .. هى ذى الفتاة التى كنا نتحدث عنها منذ ايام ، واسمها « هيما نجينى »... يسرها ان تقابلك ... هيمو ... تعالى ، وتعرفى الى اختك .

ودخل زوجى الغرفة فى نفس اللحظة . فتظاهر بالدهشة عندما رأى الفتاة الغريبة ، وكاد يتراجع من حيث دخل ، ولكن عمته قالت :

ـ عزيزى ، يا ابانيش ، ما الذى يجعلك تهرب ؟ ليس هناك ما يدعو الى ذلك ،.. هذه ابنة عمى « هيما نجينى »، جاءت لتراك .. وانت يا هيمو .. تقدمى ، وقومى بواجب الاحترام .

وكأنه قد فوجىء بالموقف ، فأخذ يمطر عمته بأسئلة متلاحقة عن الفتاة مثل : متى ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟

ولم تفتنى ملاحظة كل هذه التفاهات ... وأخذت يد هيمانجينى بيدى ، وانطلقت بها

الى غرفتي ، حيث أخذت وجهها وذراعها وشعرها بيدى ، لاكتشف أنها فى الخامسة عشرة من العمر .. وأنها أيضا .. جميلة جدا .

وما كدت أفرغ من لمس وجهها ، حتى فوجئت بها تنفجر ضاحكة وتقول :

ـ ما هذا ؟... ما الذى تفعلينه ؟ هل تحاولين تنويمى مغناطيسيا ؟

وجرفت ضحكتها حلوة الرنين فى لحظة ، السحب السوداء التى وقفت بيننا ، فألقيت ذراعى اليمنى حول عنقها وقلت :

ـ أيتها العزيزة ، انى أحاول أن أراك .

ثم عدت أربت وجهها الناعم بيدى اليسرى فقالت :

ـ تحاولين أن ترينى ؟

وانطلقت ضحكتها مرة اخرى ثم قالت :

ـ أترين أنى نبتة من الخضرة نمت فى حديقتك فتريدين باللمس أن تعرفى كم هى ناعمة ؟

وادركت ـ عندئذ ـ انها لم تعرف انى فقدت عينيَّ فقلت :

ـ يا أختى .. أنا عمياء .

فران عليها الصمت .. واستطعت أن أشعر بعينيها الواسعتين تحدِّقان فى وجهى بفضول وتطلع .. بل كنت ادرك انهما مليئتان بالاشفاق والأسى .. ثم زحمهما التفكير والحيرة .. وبعد هنيهة من الصمت قالت :

ـ اوه .. عرفت الآن لم جاء زوجك بعمته للجلوس هنا .

ـ كلا .. أنت مخطئة فى استنتاجك ... فهو لم يطلب اليها ان تجيء ، لقد جاءت باختيارها ورغبتها .

فاستغرقت هيا نجينى فى ضحكات متلاحقة صاخبة وهى تقول :

ـ فعلا ، تلك هى خلائق عمتى وسلوكها .. ألم يكن فضلا منها ان تجيء دون ان يدعوها أحد ؟.. وبعد أن جاءت الآن ، فلا أشك

أنك لا تريدين لها ان تغادر قبل ان ينقضى بعض الوقت

ثم توقفت عن الكلام وبدت حائرة وهى تقول :

ـ ولكن لماذا وافق والدى على إرسالى الى هنا ؟ هل تستطيعين ان تحزرى ؟
ودخلت العمة حين كنا نتبادل الحديث ، فقالت لها هيانجينى :
ـ متى تظنين أننا سنعود يا عمتى ؟
ونظرت اليها العمة مرتبكة وقالت :
ـ أما إنه لسؤال ؟! لم أرقط فى حياتى مخلوقا قلقا مثلك ... إننا بالكاد وصلنا وتسألينني متى نعود ؟!..
ليس فى الأمر ما يضايق بالنسبة لك طبعا ، فهو بيت قريب حميم ... ولكن ماذا عنى ؟
وأقولها صريحة انى لا أستطيع البقاء هنا .
ثم وجدتها تأخذ يدى بين يديها وتقول :
ـ ماذا ترين يا عزيزتى ؟
فجذبتها إلىَّ وضممتها الى صدرى دون أن أقول شيئا ، ولا شك ان العمة قد وجدت نفسها فى موقف محرج ، وادركت ان الموقف قد خرج عن سلطانها ... ولم تجد ما تقوله سوى أن تقترح أن تذهب مع هيانجينى للإستحمام ، فاذا بالفتاة تجيب وهى تتعلق بى :
ـ كلا ... كلتانا نذهب معا
ولم يسع العمة الا أن ترضخ خشية ان يزداد الموقف حرجا .
وفيما كنا نتجه الى النهر سألتنى :
ـ لماذا لا أجد لك اطفالا ؟
واستثارنى سؤالها المفاجىء ، فقلت :
ـ كيف ... كيف أقول لك ؟.... أقصد ... أقصد أن الله لم يهبنى هذه النعمة .. هذا هو السبب .
فاذا بها تقول :
ـ كلا ... أبدا ... ليس هذا هو السبب ... أخشى أن تكونى قد أرتكبت ذنبا ... اليك عمتى هذه فهى لم ترزق اطفالا ... ولا بد ان فى قلبها بعض اللؤم والخبث .. ولكن أى لؤم أو خبث فى قلبك أنت ؟

وأسلم ان الكلمات قد آذت مشاعرى ... اذ ليس لدى حل لمشكلة الشر .... فتنهدت بعمق وقلت بينى وبين نفسى فى صمت :

ـ رباه ... انك وحدك العليم الخبير

وضحكت هيانجينى وهى ترانى اتنهد ... ثم قالت مع ضحكاتها المعاتبة المرحة :

ـ انك تحملين دعاباتى محمل الجد ...

ثم استغرقت فى ضحكات تردد صداها عبر النهر .

وأخذت الاحظ منذ هذه الفترة اضطرابا متواصلا فى أداء زوجى لواجباته المهنية ، فكان ـ مثلا ـ يرفض الاستجابة لمن يستدعيه فى الاحياء والنواحى البعيدة ، بل قد بلغ به الأمر ان يتهرب من مرضاه حتى عندما يأتون لمراجعته .

وقد كان من عادته ان يترك عيادته ، ويدخل المنزل إما لتناول وجبات منتصف النهار ، وإما بعد انتهاء وقت العيادة فى الليل . بينما الآن ، ودون ما داع من اى نوع اخذ يتردد بين العيادة والمنزل بحجة تفقد عمته وما قد تحتاج اليه ، وحزرت انه دخل غرفتها عندما سمعتها تصيح منادية هيانجينى لتأتيها بكوب ماء ... ولعل الفتاة كانت تلبى مثل هذه الرغبة فى بادىء الامر ، ولكنها ما لبثت ان اخذت ترفضها . وعندئذ فان العمة تعمد الى ندائها بلهجة مستفزة وتردد : « هيمو .... هيمو .... هيانجينى » ولكن الفتاة تلتصق بى يدفعها احساس بالاشفاق والرثاء ، ويسيطر عليها شعور بالفزع والحزن فتلتزم الصمت ... وقد تلوذ بى أحيانا كمخلوق يلاحقه الصياد ، ويكاد لا يدرى ما الذى يمكن ان يحدث فى اللحظة التالية .

وفى هذا الظرف ، قدم أخى من كلكتا لزيارتى ، وكنت أعرف ما يتمتع به من قوة الملاحظة ، كما اعرف قسوة احكامه ، فخشيت ان يقف زوجى امامه موقف المتهم ، ولذلك فقد حرصت على أن أخفى حقيقة الواقع خلف قناع من المرح المفتعل والبهجة الكاذبة ... ولعلى قد اسرفت فى التمثيل ، اذ لم يكن فى تصرفى ما يتفق وطبيعتى .

ولم يلبث زوجى أن بدأ يتململ ويظهر تبرمه لوجود أخى ، ولم يطل به الامر حتى سألنى : الى متى ينوى أخوك ان يظل معنا ؟ بل لم يمض طويل وقت حتى كاد ضيقه به يبلغ حد الإهانة ، فلم يسع أخى إلا أن يقرر الرحيل .

وقبل ان يغادرنا وضع يده على رأسي ، وتركها لحظات ، ولم يفتني انها كانت ترتعش وحين كان يودعنى تساقطت الدموع من عينيه ..

ومازلت أذكر أن ذلك كان فى ذات مساء من أيام إبريل ، ومن أيام السوق فى البلدة التى نسكنها ، والذين جاءوا للتسوق كانوا يعودون الى قراهم المجاورة . وكان فى الجو ما ينذر بهبوب عاصفة ، وكانت رائحة التربة الرطبة والرطوبة فى الهواء تؤكد أنها متوقعة بين لحظة واخرى . ولم يكن من عادتى ـ بعد أن أصبحت عمياء ـ أن أترك مصباحا مشتعلا فى غرفتى عندما أكون وحدى ، خوفا من أن تعلق النار بثيابى .. وقد جلست على أرض الغرفة المظلمة ، وتقدمت بضراعتى الى الله أقول :

ـ رباه .... إنى لا أراك ... ولقد فقدت نعمة البصر ، وإنى لممسكة بهذه الدفة المحطمة فى قلبى حتى لقد دميت يداي ... فحتى متى ؟.... حتى متى يا رب تمتحن قدرتى على الصبر ؟!

ثم القيت برأسى على طرف السرير ، وأجهشت فى البكاء ... وما كدت ، حتى أحسست كأن السرير يهتز قليلا ... ثم هيانجينى جلست الى جانبى وأحاطت عنقى بأحدى ذراعيها وبيدها الأخرى أخذت ترقأ الدموع المنحدرة على وجهى ، ولست أدرى ما الذى جعلها فى هذا المساء تلازم الغرفة ..؟ بل ما الذى جعلها تظل مضطجعة هناك ..؟ ولم توجه إلىَّ أسئلة بل لم تفه بكلمة واحدة ... كل ما فعلته أنها وضعت كفها الرقيقة الناعمة على جبهتى .. ثم قبلتنى وغادرتنى فى صمت .

وفى صبيحة اليوم التالى قالت هيانجينى لعمتها بحضورى :

ـ اذا كنت ماتزالين تريدين البقاء ، فإنى لا أريد ... وسأغادر مع خادم عائلتى .

وأجابتها العمة بانه ليس هناك ما يستدعى أن تذهب وحدها ، اذ هى ايضا تعتزم الذهاب ... ثم أخرجت من حقيبتها ـ وهى تبتسم وتتودّد ـ خاتما مرصعا باللؤلؤ .. وقالت :

ـ أنظرى يا هيمو ... ما أجمل هذا الخاتم الذى جاء به أبانيش ويقدمه هدية لك .

وسرعان ما اجابتها هيانجينى ، فى لهجة حادة غاضبة وهى تتناول منها الخاتم :

ـ انظرى يا عمتى ... كم أنا بارعة فى التصويب عن بعد ..

وبحركة سريعة خاطفة قذفت بالخاتم الى حوض الماء عبر النافذة .

وأخذت العمة بالمفاجأة ... وبدت ذاهلة مرتبكة .. ثم بعد صمت لحظات خاطبتنى قائلة :

ـ اسمعى يا كومو ... حذار أن تقولى كلمة واحـدة عن هذا التصرف الصبيانـى الاخرق ... سوف ينزعج أبانيش جدا ... جدا

فأكدت لها انه لن يسمع كلمة واحدة منى ...

وفى اليوم التالى ، قبل أن تغادرنا هيانجينى عانقتنى وقالت :

ـ أذكرينى أيتها الغالية ... لا تنسينى ...

وربت وجهها بأصابعى وقلت :

ـ إن الاعمى ، يا اختاه ، يتمتع بذاكرة قوية

فجذبت رأسها نحوى وقبلت شعرها وجبهتها ، وعندما فارقتنى ، غامت الدنيا فى احساسى ، وتلاشى ذلك الجمال والمرح واليفع الغض الذى كان يملأ ساعات وحدتى ... ووجدتنى أمشى وقد مددت ذراعيَّ أمامى ، وكأنى أحاول أن أعثر على ما بقى فى حياتى المهجورة القاحلة ...

وجاء زوجى بعد فترة من الوقت ، وتظاهر بأنه يتنفس الصعداء أسترواحا من أنهما قد غادرتانا أخيرا ... وكان واضحا انه يبالغ ، وانه يتصرف بتفاهة ... فقد أضاف ان مجىء عمته وهيانجينى قد عطله عن اعماله ، وواجبات مهنته .

وأحسست أن الذى كان يحجزما بينى وبينه حتى اليوم هو العمى ... فأذا به يضيف حاجزا آخر هو هذا الصمت الذى ظل يلتزمه عن هيانجينى .. اذ بدا وكأن الامر لا يهمه ، أو يعنيه فى قليل أو كثير ... ولكن ما هى الا أيام حتى عرفت أنه يتلقى من عمته الرسائل عنها .

كنا فى أوائل شهر مايو ، حين دخلت وصيفتى فى ذات صباح وسألتنى :

ـ ما هذه الترتيبات والاستعداد الذى يتم على فرضة النهر .. الى اين يذهب سيدى ؟

وكنت أعلم أن شيئا ما يوشك ان يحدث ، ولكنى قلت لها :

ـ لسـت أدرى

ولم تجرؤ الوصيفة أن توجه الى مزيدا من الاسئلة ، وسمعتها تتنهد من صدر مزحوم وهى تتركنى وتبتعد .

وفى وقت متأخر ـ تلك الليلة ـ جاءنى زوجى وقال :

ـ على أن أعود أحد المرضى فى الريف ، ولذلك فلابد أن استيقظ مبكرا ، ويحتمل أن أغيب عنكم لفترة يومين أو ثلاثة .

فنهضت من فراشى ، ووقفت أمامه ، وصرخت فى وجهه :

ـ لماذا تكذب علىَّ

وتلعثم زوجى وتعثرت كلماته وهو يقول :

ـ ماذا ؟... كيف ؟.... أى كذب ؟ عماذا تتحدثين .

وقلت :

ـ إنك ذاهب لتتزوج

فلم يحر جوابا ... وران على الغرفة كلها الصمت ، ثم وجدتنى أقول :

ـ أجبنى .. قل نعم ...

واجاب يقول فى صوت متخاذل مرتجف :

ـ نعـــم ....

فصرخت بصوت مرتفع أقول :

ـ لا ... لن أسمح لك ... لن أسمـح لك ... وعلىَّ أن أنقـذك من هذه الكارثـة العظمى ... من هذا الذنب الخطير ... واذا عجزت عن أن أحول دون وقوعك فى هذه الهاوية ، فلماذا أنا زوجتك ... ولماذا ظللت أعبد الهى ..

وران على الغرفة صمت كالصخر .. فارتميت على الأرض وتعلقت بركبتي زوجى ... وقلت :

ـ ما الذى ينقصنى ؟ قل لى الحقيقة بصراحة ... لماذا تريد أن تتزوج أخرى ؟

وأخذ زوجى يتكلم ببطء :

ـ سأفضى اليك بالحقيقة ... والحقيقة هى أنى أخاف منك ... أرهبك ... لقد أعتقلك العمى فى حصنه المنيع ... ولا سبيل أمامى للدخول .. أنت .... لم تعودى بالنسبة لى

أمرأة .. أنك كائن رهيب كالإله ... ولا استطيع ان اعيش معك حياتى المألوفة ... إنى احتاج الى المرأة .. المرأة العادية . التى استطيع أن أكون معها حرا .. فى لومها ... فى ملاطفتها .. فى تدليلها .. وفى توبيخها أيضا .

ـ اوه .. من لى بمن يفتح له قلبى ليرى ، انى لست إلا هذه المرأة ... هذه المرأة العادية .. أنى نفس تلك الفتاة التى كنتها يوم تزوجت .. فتاة بكل حاجتها إلى أن تصدق ... وأن تثق ... وأن تتعبد ....

ولست اذكر الكلمات التى تلفظت بها ، ولكننى أذكر فقط أنى قلت :

ـ اذا كنت زوجة صادقة ، فأن الله شهيد عليّ ، وهو الذى يحميك أن تقع فى حمأة هذا الاثم العظيم ... هو الذى سيمنعك أن تحنث فى القسم الذى التزمت به .. وأنى لأرجو أن أترمل أنا ، أو أن تموت هيامنجينى . وعندئذ تهاويت الى الارض وقد أغمى عليّ ... وعندما أفقت ورجعت الى صوابى كان الليل ما يزال يغمر الكون من حولى ... كانت الطيور ماتزال صامته .. فى اعشاشها ، وكان زوجى قد ذهب .

* * *

وقضيت النهار فى العبادة فى معبد المنزل ، وما كادت غيابات العشى تؤذن بدنو الليل ، حتى أخذت عاصفة شرسة تهب برعودها وبروقها وامطارها ... بحيث بدا المنزل وكأنه يكاد يتقوض .. وعندما لذت بالمعبد ، وأنحنيت متضرعة الى الله ... ولم أتوسل اليه أن ينقذ زوجى من براثن العاصفة ، رغم أنى كنت أعلم أنه كان فى هذه الساعة يواجه خطرها وهو على النهر .... كلا ... لم أطلب شيئا كهذا من الله ... وانما الذى طلبته هو ان يمنعه من ان يحنث فى القسم الذى اقسمة والتزم به ... ان يحميه من الوقوع فى حمأة ذلك الاثم الخطير ..

وانقضى الليل .. وقضيت أنا طوال النهار على مقعدى فى المعبد .. وحين كان المساء .. كان الطرق العنيف على الباب ثم تحطيمه واقتحامه ... حيث وجدونى مضطجعة فاقدة

الوعى على الارض ثم حملونى الى غرفتى ، وعندما صحوت من الإغماء ، أخيرا ، سمعت من يهمس فى أذنى :

ـ أخـــتى :

ووجدت أنى مضطجعة فى غرفتى ، ورأسى فى حضن هيانجينى .. وحين حركت رأسى قليلا سمعت وسوسة ثوبها الحريرى ... كان ثوب زفافها ...

ووجدتنى أردد بينى وبين نفسى :

ـ رباه ... يا رباه ... ذهبت ضراعتى عبثا .. لقد وقـع زوجـى فى هاويـة الاثـم العظيم ...

وأحنت هيانجينى رأسها على وجهى ، وقالت فى همس حلو حبيب :

ـ أختى ... يا حبيبتى الغالية ... جئت التمس أن تباركى زواجنا

ولاول وهلة تخشب جسمى ، كأنه جذع شجرة ضربتها صاعقة ... وعندئذ نهضت وقلت متوجعة وانا أرغم نفسى على الكلام :

ـ ولم لا أبارك زواجك أنت ... أنك لم تقترفى إثما ...

وسمعت هيانجينى تضحك تلك الضحكة ، حلوة الرنين :

ـ إثم ... وذنب ... يوم تزوجت أنت لم تقترفى إثما ... وحين اتزوج أنا تسمين ذلك ذنبا وإثما .

وحاولت أن أبتسم استجابة لضحكاتها ، وقلت فى نفسى :

ـ ليست ضراعتى آخر شىء فى هذا العالم ، وإرادة الله هى كل شىء ، فلتنـزل الضربات على رأسى كما هى إرادته ، ولكن ليحفظ لى إيمانى به وأملى فيه . وأنحنـت هيانجينى أمامى ، ولمست قدمى ، فقلت :

ـ ليسبغ الله عليك السعادة ، وليمتعك بالتوفيق الدائم .

ولكن بدا لى أن الفتاة لم تكتف بما قلت اذ قالت :

ـ يا أختى الغالية ... لا يكفى أن تباركينى ... لا بد أن تجعلى سعادتنا كاملة من جميع الوجوه ... عليك بهاتين اليدين الطاهرتين ، أن تقبلى زوجى فى هذا البيت أيضا ... دعينى آتيك به .

وقلت على الفور :

ـ بلى .... دعيه يأت إليَّ ...

وما هى الا لحظات حتى سمعت وقع أقدام لخطوات ليست غريبة على سمعى ...

ـ كيف حالك يا كومو ؟

فسرعان ما نهضت ووقفت ثم أنحنيت وصرخت :

ـ دادا ؟!

وأنفجرت هيمانجينى بضحكتها الصاخبة ثم سمعتها تقول :

ـ ما تزالين تنظرين اليه باعتباره اخاك الاكبر . بينما اصبح المعقول الآن ان تسميه اخاك الصغير ... بل وان تمصعى أذنيه ايضا لانه تزوجنى أنا ... أختك الصغرى

وهنا فقط فهمت ... فقد حفظ الله زوجى من الوقوع فى إثم الحنث فى قسمه . واعرف ان اخى كان يصر على ألاَّ يتزوج قط ، ومنذ وفاة امى لم يبق ما يقنعه بتحقيق أمنيتها فى زواجه ... ولكن أنا ... كان لواقعى ما حقق هذه الامنية اذ تزوج الآن من اجلى .

انهمرت دموع الفرح من عينيَّ وانحدرت على وجنتى ... ولم أستطع أن أحبسها رغم الجهد الذى بذلته للتماسك والتجلد .. وأحسست بأصابع أخى تتخلل شعرى بينما انضمت هيمانجينى الى صدرى وهى ماتزال تضحك فى مرح وتحبب صادق برىء .

كنت مستلقية يقظى على سريرى طوال أفضل ساعات الليل ، منتظرة فى قلق مثير عودة زوجى ... ولم أستطع أن أتصور كيف سيصمد لصدمة الاخفاق والخجل التى لا بد ان يفاجأ بها حين يعود .

وعندما تجاوزت الساعة منتصف الليل أحسست بباب غرفتى يفتح فى بطء وتوجس .. فجلست على سريرى وأرهفت السمع ... كانت تلك خطوات زوجى ... فما أشد خفقان قلبى فى هذه اللحظات ولكنه أقترب من سريرى ، وأخذ يديَّ فى يديه ثم قال :

ـ لقد أنقذنى أخوك من الدمار ... لقد كدت أهوى وأنحدر الى أعماق الهاوية فى لحظة جنون ... والفتنة اطبقت عليَّ بكل سلطانها الساحر ... بحيث كاد يتعذر عليَّ ان افلت من أسرها ... ولا يعلم إلا الله سبحانه اى عبء ثقيل كنت أنوء بحمله فى ذلك اليوم الذى دخلت فيه القارب ... لقد ولولت العاصفة وهى تجتاح النهر وتحجب السماء ... وفى خضم

مخاوفى كانت لى أمنية خفق بها القلب ، وهى أن أغرق ، فتنجو حياتى من تلك العقدة التى ارتبطت بها ...

ولقد وصلت « ماتورجانج » .... وهناك سمعت الخبر الذى اطلق سراحى .. وهو أن أخاك قد تزوج هيمانجينى ... ولا استطيع أن أصف لك مشاعر الفرحة والخجل التى غمرتنى حين سمعت ما وقع ... وسرعان ما عدت الى القارب فى طريق عودته ... وفى تلك اللحظة من مكاشفة الذات أيقنت أنى لن أنعم بالسعادة إلا معك .... وتالله أنك لقديسة ....

ضحكت وبكيت فى وقت واحد ... ثم قلت :

ـ لا .... لا ..... سوف لن أكون قديسة منذ اليوم .... أنما أنا زوجتك الصغيرة ... ولست الا امرأة عادية ....

وأجابنى يقول :

ـ حبيبتى ... ولدى أنا أيضا ما أريد أن أفضى به اليك ... احذرى أن تطوقينى بالعار حين تسميننى معبودك والهك ....

وفى اليوم التالى ، كانت البلدة الصغيرة تشهد أفراحنا وتعلنها بطلقات الالعاب النارية ... ولكن لم يبد أحد أية إشارة أو يذكر ليلة الجنون تلك التى كاد كل شىء فيها يذهب فى هاوية الضياع .

* * *



كان « فاتيك » تشاكرا فارذى زعياً بين أطفال القرية ، وقد فكر ذات يوم فى خطة جديدة للعبث واللعب .. كانت توجد على حافة النهر كتلة كبيرة من الخشب أعدت لأن يُصنع منها قارب صغير ، وكانت الخطة التى وضعها فاتيك هى أن يتعاون جميع الأطفال فيرفعوا هذه الكتلة من الخشب من مكانها ثم يدحرجوها بعيداً . مما لاشك فيه أن صاحب هذه الكتلة من الخشب سيغضب وسيدهش ، بينما يستمتع الأطفال باللعبة ويضحكون ملء أشداقهم وصدورهم عليه . وماكاد فاتيك يعرض فكرته على رفاقه حتى وافقوا عليها بالاجماع .

ولكن ما كادوا يبدأون تنفيذ مشروعهم حتى كان (ما هان) وهو أخ صغير لفاتيك ، قد قفزدون أن ينبس بكلمة ، وجلس على الكتلة من الخشب أمامهم . وقد أرتبك الأطفال لأول وهلة ، ولكن أحدهم تقدم فى شيء من الإحجام وطلب منه أن ينزل عنها ، ولكن « ماهان » ظل حيث هو لا يعبأ بشيء ، وقد بدا كأنه فيلسوف صغير يتفرج على سخافة اللعب أمامه .

واشتعل فاتيك غضباً ثم صرخ فى أخيه قائلا :

« إذا لم تنزل عن الخشبة فى الحال فسوف اضربك يا ماهان » .

ولم يفعل ماهان شيئاً سوى أنه تحرك قليلا عن موضعه الى موضع أكثر استقرار وسعة .

ووجد فاتيك أنه إذا كان سيحتفظ بمكانته أمام جمهور الصغار ، فان عليه أن ينفذ وعيده ، ولكن شجاعته كانت تخونه فى الأزمات ، وسرعان ما أمده ذكاؤه الخصب بمناورة جديدة تغضب أخاه وتزيد فى متعة أتباعه من الصبية . فأصدر أمره الى الأطفال بأن

يدحرجوا الخشبة وعليها أخوه الى حيث يشاءون . وقد سمع ماهان الأمر وقرر أن يتشبث بمكانه وأن يثبت شجاعته وإقدامه ، فلا يتزحزح عن مكانه بأية حال . ولكنه ـ كأولئك الذين يطلبون الشهرة فى هذا العالم ـ قدر أن فى مغامرة الثبات التى يقدم عليها خطراً دون شك .

وبدأ الأطفال يتجمعون على الكتلة من الخشب بكل قواهم ويتنادون . « واحد ، اثنين ، ثلاثة » . وما كادوا يلفظون كلمة ثلاثة ، حتى كانت الكتلة قد ذهبت وذهبت معها فلسفة ماهان ومجده وكل شيء كان يحرص عليه .

وتصايح الأطفال فرحين مغتبطين ، ولكن فاتيك لم يخل من شيء من الذعر . فقد كان يعلم ماسيأتى بعد ذلك ، ولم يخطىء فيما حدثته به نفسه ، إذ نهض ماهان من الأرض أعمى كالقدر ، صارخاً كالمجنون . وأندفع نحو فاتيك يخربش وجهه بيديه ، ويضربه بكل قواه ، ويركله بقدميه ، ثم أنطلق باكياً الى البيت ، وبذلك أسدل الستار على الفصل الأول من المأساة .

وجفف فاتيك وجهه ، وإذ جلس على طرف صخرة غارقة على شاطىء النهر ، شرع يعبث بقطع من الأعشاب النامية بين يديه . وماهى إلا هنيهة حتى رأى فاتيك رجلا متوسط العمر ، ذا شعر وخطه الشيب وشاربين أسودين ، يتقدم بقاربه من النهر الى الشاطىء ثم يخرج من قاربه الى الأرض . ورأى الرجل فاتيك جالساً فى مكانه فسأله: « أين تسكن أسرة تشاكرا فارذى ؟ » . ولكن فاتيك ظل فى مكانه يعبث بالأعشاب بين يديه ثم قال : « هناك » .

وكان من المتعذر أن يفهم الرجل شيئاً من هذه الكلمة ، فسأله مرة أخرى . ولكن فاتيك لم يصنع شيئاً أكثر من أنه ظل يلوح بساقيه الى الامام والى الخلف على الصخرة التى يجلس عليها ثم قال : « أذهب وأبحث عما تريد » . ثم أستمر فى العبث بالحشائش والأعشاب بين يديه ، وفى هذه اللحظة جاء خادم من بيت فاتيك يخبره أن أمه تطلبه حالاً ، ولكنه رفض أن يتحرك من مكانه ، وفى مناسبة كهذه يصبح الخادم سيداً ، فسرعان ماداهم فاتيك وحمله بين ذراعيه وهو يرفس ويناضل غاضباً ومهتاجاً .

وما كاد يدخل المنزل حتى رأته أمه وصاحت غاضبة .

ـ « ها أنت ذا قد ضربت ماهان مرة أخرى » .
ـ « كلا لم أضربه ومن الذى قال لك أنى ضربته ؟ » .
وصرخت أمه فيه قائلة :
ـ « لا تكذب .. لا تكذب لقد ضربته » .
وقال فاتيك باصرار .
ـ « قلت لك انى لم أضربه واسألى ماهان نفسه » .
ولكن ماهان ظن أن الأولى به أن يثبت على شكواه فقال :
ـ « بلى يا أماه . لقد ضربنى فاتيك » .
ونفذ صبر فاتيك ولم يستطع أن يحتمل هذا الظلم فاندفع نحو ماهان وانهال عليه ضرباً وركلاً وهو يقول :
ـ « خذ . خذ . خذ . أيضاً جزاءً لك على كذبك » .
وانحازت أمهما إلى جانب ماهان ، وسحبت فاتيك بعيداً وهى ترد له ضرباته بأقسى منها . وعندما دفعها فاتيك جانباً صرخت تقول :
ـ « ماذا أيها الجبان الصغير ؟ هل بلغت بك الجرأة أن تضرب أمك أيضاً ؟ » .
وحدث فى هذه اللحظة الحرجة أن وصل الرجل ذو الشعر الأشيب وهو يتساءل عما حدث ، وما كاد يراه فاتيك حتى تطلع إليه فى خجل وارتباك .
ولكن أمه ماكادت تلتفت وترى الرجل الغريب ، حتى استحال غضبها دهشة ، إذ عرفت فيه أخاها الغائب فهتفت :
ـ « ماذا ؟ دادا ؟ من أين جئت ؟ » .
وما كادت تقول هذه الكلمات حتى انحنت على الأرض وقبلت قدميه . وكان أخوها بيشمبار ، قد سافر بعد زواجها حيث بدأ عملا فى لوتبى وكانت هى قد فقدت زوجها أثناء غيابه . والآن عاد بيشمبار الى كلكتا وشرع يبحث عنها وما كاد يعرف مكانها حتى أسرع ليراها .
وكانت الأيام القليلة التالية مليئة بالبهجة والسرور . فقد سأل عن حال الولدين وعن سلوكهما ، أخبرته أن فاتيك دائم الشغب والضجة والعبث ، وهو كسول غير مطيع

وعنيف فى كل تصرفاته . أما ماهان فانه طيب كالذهب ، وديع كالحمل ، ولوع بالقراءة والدرس . فعرض بيشمبار على أخته أن يأخذ منها فاتيك وأن يدخله المدرسة مع أطفاله فى كلكتا . فسرعان ماوافقت . وحين سأل فاتيك عما إذا كان يود أن يذهب معه الى كلكتا ، طفر فرحاً وسروراً وهو يقول ، فى لهجة نمت عن أنه يعنى ما يقول فعلا : « بلى يا خالى بلى .. سأذهب معك » .

وقد تنفست الأم الصعداء إذ لاح لها أنها ستتخلص من فاتيك . فقد كانت تتحامل على الصبى ولم يكن بينه وبين أخيه الوئام الذى ينبغى أن يسود بينهما ، وكثيراً ماخشيت أن يقدم فاتيك يوماً على إغراق ماهان فى النهر أو أن يشج رأسه بحجر ، أو أن يزج به فى خطر من الأخطار ، وقد ساءها فى نفس الوقت ، الى حد ما ، أن ترى لهفة فاتيك البالغة على مغادرة منزله .

وما كاد يتقرر سفر فاتيك حتى ظل يسأل خاله فى كل دقيقة عن موعد الرحيل . كان على ما يشبه الشوك قلقاً وتطلعاً ، وكثيراً ماقضى الليل ساهراً يفكر فى الرحلة ويحلم بها . وقد تنازل لماهان عن سنارة الصيد وعن سكينه الكبيرة وعن أكياسه العديدة الملونة . وكلما تقدمت الأيام مقتربة من يوم الرحيل الموعود . بدا أن كرمه مع أخيه أصبح لأحد له .

وحين وصل الى كلكتا مع خاله ، رأى فاتيك عمته لأول مرة . ومما لاريب فيه أنها لم تسر إطلاقاً بهذا المخلوق الجديد ، يضاف الى أسرتها . وقد كانت ترى أن فى أولادها الثلاثة مايغنى عن إضافة أى مخلوق آخر . وبدا لها أن دخول صبى قروى فى الرابعة عشرة من عمره بين أطفالها أمر مثير ومقلق الى حد بعيد ، وكان الأخلق بزوجها بيشمبار ، أن يفكر كثيراً قبل أن يقدم على غلطة كهذه .

وليس فى الدنيا كلها مخلوق يبز صبياً فى الرابعة عشرة من عمره ضجة وشغباً ، فهو ليس زينة الحياة فى مثل عمره . وليست هناك أية فائدة ترجى من وجوده ، ويكاد يكون من المستحيل التأثير فيه لتقويم أعوجاجه . إذا تكلم بلهجة الصغار عيروه بالطفولة والميوعة ، وإذا تكلم بلهجة الكبار أتهموه بالسلاطة والتوقح وعدم الأدب .. بل ان كلامه أياً كان وبأية لهجة جاء لا يلقى إلا الاستهجان والنفور . ثم هو فى الطور الذى يزداد فيه نمواً يوما عن يوم . إنه يكبر عن الملابس التى تشترى له بسرعة تجعل ملاحقته بالثياب

التى يحتاجها أمراً مرهقاً ، وصوته يزداد فى كل يوم خشونة وارتعاشاً وتكسراً . وهذا فى الوقت الذى يلوح على وجهه بين يوم وآخر ، مايجعله أقل امتاعاً وفتنة ، ومع أن من السهل أن يتسامح الأمهات والأباء مع صغارهم فى طفولتهم الأولى ، فإن من العسير عليهـم أن يتسامحوا مع صبى بلغ الرابعة عشرة فى أى خطأ ، حتى ولو كان من الأخطاء التى لا حيلة له فى وقوعها . وسرعان مايصبح الصبى أكثر شعوراً بما فيه من نقص ، بحيث إذا تحدث مع من يكبره سناً ، إما أن يغلب عليه التوقح والاحتدام دون باعث ، وإما أن يغلب عليه الخجل والإحجام ، فيبدو وكأنه خجل من مجرد وجوده بين الناس .

ومع ذلك فانه فى هذه السن يشعر فى أعماق قلبه بالحب والإخلاص ، بحيث قد يصبح عبداً لأى مخلوق يوليه شيئاً من التقدير والاعتبار . ولكن ليس من أحد يستطيع أن يجهر بشىء من الحب أو التقدير له ، لأن ذلك فى نظر الكثيرين يؤدى الى مالاتحمد عقباه فى تربية الصبى . وهكذا يتوالى عليه الإحتقار والإزدراء من كل جانب ، فاذا به يصبح ككلب شارد فقد صاحبه .

وموطن الصبى فى هذه السن هو فردوسه الفريد ، وبيته هو جنته الوارفة . فإذا اضطر الى العيش فى بيت غريب ، ومع غرباء عنه ، كان ذلك بالنسبة له تعذيباً لايطاق ، فى وقت يحتاج فيه أشد الحاجة الى نظرات النساء الرحيمة ، ولايطيق أن يحتمل غضبهن وازدراءهنُ وقسوتهن .

ولهذا فقد كان مما عذَّب فاتيك وأضناه أن يكون ضيفاً غير مرغوب فيه فى بيت خاله ، حيث تلاحقه العمة بالإحتقار والإزدراء . بل لقد بلغ به الأمر إذا ماطلبت منه أن يؤدى لها خدمة ما أن يستبد به الفرح ، حتى ليبدو مبالغاً فيه ، فما أسرع ماتزجره وتتهمه بالحمق والغباء ، وتأمره أن يكفَّ عن حركات الاغتباط التى يبديها وأن يلتفت لدروسه وعمله .

وكان من نتيجة هذا الإهمال المستمر أن قام فى نفس فاتيك شعور بالإحباط والضيق . وأصبح يتوق الى أن يخرج الى البرارى ليملأ رئتيه بهواء جديد . ولكن لم تكن هناك برارٍ ، ولم يكن هناك ريف أو حقول يذهب إليها . كانت تحيط به بيوت كلكتا وجدرانها من كل جانب . ولم يبق له إلا أن يحلم ليلة بعد ليلة بقريته التى غادرها ، وباليوم الذى يتاح له أن يعود فيه إليها . وتملأ رأسه ذكريات الحقول التى كان يجرى فيها ، ويرسل فى سمائها

الزرقاء الصافية طائرته من الورق ، طوال اليوم . وشاطىء النهر العريض حيث كان يتجول صارخاً أو مغنياً يملأ قلبه المرح طوال النهار . ثم تلك البحيرات الصغيرة الضيقة التى كان يسعه أن يغطس وأن يسبح فى مياهها عندما يشاء . وأولئك الرفاق من الصبية الذين كان يتزعمهم . وكانت تلح عليه قبل كل شيء ذكرى أمه الظالمة القاسية التى لم يستطع أن ينسى قط تحاملها عليه وقسوتها فى معاملته . كان نوع من الحب الطبيعى كذلك الحب الذى يوجد بين صغار الحيوانات وأمهاتهم .. نوع من اللهفة والشوق اللذين يأكلان الصدر والقلب حنينا الى رؤية من يحب .. ونوع من البكاء الصامت فى أعماق القلب بحثاً عن الأم الغائبة يشبه خوار العجل الصغير ، وقد فقد أمه عند الفجر . هذا النوع من الحب الذى يشبه غريزة الحيوان ظل يمزق قلب هذا الصبى الخجول النحيل ، دون أن يشعر به أحد ، ودون أن يفهمه أحد ، ولكنه يملأ ذهنه وقلبه أينما كان فى يقظةٍ أو منام .

ولم يكن فى المدرسة التى أُدخل فيها فاتيك أكثر منه هزالاً وتأخراً . كان يلتزم الصمت إذا ما وجه إليه المدرس أى سؤال . وكان يتحمل فى صبر كصبر الحمار ، الصفعات التى يكيلها له المدرس دون حساب ، فاذا ماخرج الصبية من صفوفهم للَّعب ، كان هو يقف الى النافذة حائراً ، لايفعل شيئاً سوى أن يحملق فى أسطح المنازل البعيدة ، فاذا مارأى اتفاقاً أحد الأطفال يلعب فى أحد السطوح كان قلبه يتمزق شوقاً وأسى .

وفى ذات يوم جمع فاتيك كل شجاعته ووجه الى خاله هذا السؤال : « خالى !! متى أستطيع أن أعود الى البيت ؟ » .

وأجابه خاله قائلا : « أنتظر حتى يحين وقت العطلة » .

ولكن العطلة المدرسية لا تبدأ إلا فى أكتوبر فكان لايزال هناك وقت طويل وعلى فاتيك أن ينتظر .

وفى ذات يوم أضاع فاتيك كتابه .. والواقع أنه كان يتعذر عليه أن ينجز واجباته المدرسية حتى ولو كانت الكتب بين يديه . ولكن المسألة الآن أصبحت أمراً مستحيلا ، وأصبح « هو » فى حالة من البؤس ، جعلت حتى أبناء خاله يخجلون من انتسابه اليهم ، بل لقد بدأوا يهينونه ويحتقرونه أكثر من بقية الصبية والرفاق ، واستطاع أخيراً أن يذهب الى عمته ويخبرها أنه قد أضاع كتابه .

وأنفجرت وعلى وجهها أقسى تعبير عن الضيق والإحتقار وهى تقول :
ـ « أيها القرد المتشرد ، كيف أستطيع أن أشترى لك كتباً خمس مرات فى الشهر ، بينما عندى عائلة وأطفال لابد أن أعتنى بهم ؟ » .

وفى تلك الليلة ، حين كان فاتيك عائداً من المدرسة الى البيت ، كان يحس صداعاً شديداً فى رأسه وقشعريرة فى جسمه .. أحس أنه على وشك أن تدهمه حمى الملاريا . وكان أشد مايخشاه هو أن يصبح عبئاً وسبباً جديداً فى مضايقة عمته .

وفى صباح اليوم التالى لم يكن فاتيك يُرى فى أى مكان . وقد ذهب البحث عنه عند الجيران دون جدوى . وكان المطر يهطل مدراراً طوال الليل . وأولئك الذين أنتشروا يبحثون عن الصبى تعرضوا لكثير من المتاعب بحيث اضطر بيشمبار فى النهاية أن يخبر البوليس عن ضياع الصبى .

وفى مساء اليوم التالى ، وقفت عربة البوليس عند باب البيت ، وكان المطر مايزال ينهمر ، والشوارع تجرى فيها السيول . وحمل اثنان من رجال البوليس على أذرعهم فاتيك ، ووضعوه بين يدى خاله بيشمبار . كان مبللا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، مجللا بالوحل . بينما كان وجهه محتقناً وعيناه قد أشتعلتا بالحمى ، وساقاه ترتعشان . وحمله بيشمبار على ذراعيه ودخل به البيت .

وحين رأته زوجته صاحت : (ما أكثر المضايقات التى يسببها لنا هذا الصبى ، أليس الأولى بك أن تبعث به الى أمه ؟) .

وما كاد فاتيك يسمع كلماتها حتى أجهش ببكائه صائحاً : « يا خالى . لقد كنت ذاهباً الى أمى ولكنهم سحبونى وعادوا بى اليك . » .

وأخذت درجة حرارته ترتفع بشدة ، وماتقدم الليل به حتى أصبح فى حالة خطرة . وأسرع بيشمبار إليه بالطبيب . وفتح فاتيك جفنيه المثقلين ، وأخذ يتطلع الى السقف وهو يقول : « خالى ألم يأت وقت العطلة بعد ؟ » .

وجفف بيشمبار الدموع التى أخذت تملأ عينيه ، وتناول يد فاتيك النحيلة فى يده ، وظل جالساً الى جانبه طوال الليل ، بينما الطفل الصغير المحموم يهذى الى أن أخذ صوته

يرتفع أخيراً حتى أصبح صرخات متوالية وهو يقول « أماه .. لاتضربيني يا أماه ، أقول لك الحقيقة يا أماه . لن أعود الى مثلها يا أماه » .

وفى اليوم التالى عاد فاتيك الى وعيه قليلا ، وأخذت عيناه تدوران حوله فى الغرفة كأنما كان يتوقع أن يرى أحداً ينتظر وصوله بشغف ، ولكنه سرعان ما القى رأسه على الوسادة يائساً ، وقد ندت عن صدره آهة ثم أدار رأسه نحو الجدار .

وكان بيشمبار قد قرأ أفكار الصبى فانحنى عليه ، وأخذ يهمس فى أذنه قائلا : أسمع يا فاتيك لقد أرسلت فى طلب أمك .

ومر اليوم ، ومايزال فاتيك يعانى من الحمى ، بحيث قال الطبيب أخيراً فى صوت مضطرب : « إن حالة الصبى خطرة جداً » ، بينما أخذ فاتيك يصيح ويهذى بكلمات تستعرض الذكريات الحبيبة التى تدور فى نفسه .. عن القرية والعصافير وأمه ، طوال ساعات المرض .

وفى آخر النهار أسرعت أم فاتيك الى الغرفة كالعاصفة وهى تئن وتصرخ وتبكى فزعاً وخوفاً على ابنها المريض .. وقد حاول بيشمبار أن يهدىء من روعها ، ولكنها ألقت بنفسها على فراش ابنها وهى تصيح : « فاتيك ياحبيبى » « فاتيك يا حبيبى » !!

وأنقطعت حركة فاتيك القلقة لحظات وتوقفت يداه عن حركتها المعبرتين عن الألم ، ولم يقل شيئاً أكثر من كلمة « آه » .

وصرخت الأم مرة أخرى : (فاتيك .. فاتيك ياحبيبى) .

ودارت عيناه حوله ، ولكنه لم يعد قادراً على أن يرى أحداً من الناس المجتمعين حول سريره .

ومضت فترة أستطاع أن يقول بعدها وكأنه يحدِّث نفسه هامساً .

ـ « أُماه لقد بدأت العطلة المدرسية يا أُماه » .

* * *

يحكى أن ملكا..

يحكى أنه كان يوجد فى قديم الزمان ملك .

وفى تلك الأيام من أيام طفولتنا ، لم تكن بنا من حاجة . الى أن نعرف من كان هذا الملك الذى تحكى لنا قصته الاساطير ... لم يكن يهمنا ان يكون اسمه « سيلاديتايا » أو « ساليفاهان » . كما لم يكن مما يعنينا فى قليل أو كثير ، إن كان هذا الملك يعيش فى « كاشيى » ، أو فى « كانوج » ، فالشىء الذى يجعل قلب الطفل فى السابعة من عمره يتوثب إهتماماً وتوقعا ، ويضطرب فرحا وسرورا ، هو هذه الحقيقة العليا . حقيقة الحقائق كلها ، وهى :

أنه كان يوجد فى قديم الزمان ملك .

ولكن قراء هذا العصر الحديث ، أكثر دقة وتدقيقا ... اذ حين يسمعون بداية كهذه لقصة ما ، فسرعان ما يتخذون موقف الناقد المتشكك ، لانهم يطبقون قواعد البحث العلمى على مضمونها الخرافى ، فيسألونك :

أى ملك ؟

ورواة القصص العصريون ، من جانبهم ، أصبحوا أكثر دقة .

فلا يرضيهم ذلك اللامحدود باسم أو مكان . (كان يوجد فى قديم الزمان ملك) ولكنهم يتخذون مظهر العلماء المتعمقين ، فيبدأون قصصهم بأنه . كان يوجد ملك اسمه (آجاتا ساترو) . ومع ذلك فإن فضول القارىء المعاصر ، لا يشبع بسهولة ، اذ تبرق عيناه عبر نظارته العلمية ، ليسأل مرة اخرى : (أى آجاتا ساترو ؟) .

أما نحن عندما كنا صغارا ، فقد كنا نفهم الاشياء الجميلة . ونكتشف سحر الاسطورة بطريقة علمنا الخاصة بنا ، اذ لم نكن نعير ذرة من اهتمامنا لهذه الاشياء عديمة

الفائدة ، التى يسمونها « علوما » . كان الشيء الوحيد الذى يهمنا هو (الحقيقة) ، وكانت قلوبنا الصغيرة غير المعقدة ، تعرف حق المعرفة ، اين يقع قصر الحقيقة البلورى المتلألىء ، وتعرف أيضا كيف نصل اليه .

ولكن فى هذه الايام ، فإن ما ينتظره القراء منا أن نكتب صفحات من أحداث الواقع بينما الحقيقة ببساطة هى انه :

« كان يوجد فى قديم الزمان ملك » .

ومازالت تسطع فى ذهنى ذكرى ذلك المساء فى كلكتا . عندما بدأت القصة الاسطورية ... كانت السماء تمطر طول النهار ، والمدينة كلها قد غمرتها المياه . وكان عمق الماء فى الزقاق الذى نسكنه يصل الى الركبة . وكانت فى نفسى مع هذا المساء المطير ، أمنية شديدة الالحاح لم يخامرنى أى شك فى أنها ستتحقق ، وهى أن يتعذر على مدرسى أن يجيء ، فجلست على مقعد فى الركن البعيد من الشرفة ، أرقب الزقاق بينما يشتد خفقان قلبى .. وانا ألاحق المطر المتساقط ، وعندما بدا وكأنه أخذ يكف ، رفعت يديَّ الى السماء ، وتضرعت الى الله أن يستمر هطول الامطار الى ما بعد السابعة والنصف ، اذ كنت على استعداد لان أسلم بأن الحاجة الوحيدة للمطر هى ان تحمى طفلا صغيرا عديم الحيلة وضعيفا ، فى ذات مساء فى ركن من مدينة كلكتا ، من قبضة مدرسة العتيد !!

فاذا لم تكن السماء قد استجابت لضراعتى ، فإن سقوط المطر ، نزولا على حكم الطبيعة لم يتوقف فعلا ... ولكن .. وأسفاه .. فإن مدرسى لم يتوقف أيضا ..

اذ فى السابعة والنصف بالدقيقة . رأيت عند منعطف الزقاق مظلته تقترب ... وهكذا انفجرت فى صدرى فقاعة تلك الأمنية الخائبة ... وغاص قلبى يأسا ... واذا كان حقا ما يقال عن عقاب بعد الموت على ما يرتكبه المرء من جرائم وآثام ، فإنى لارجو ، ان يولد مدرسى فى مكانى ... وأن أولد أنا فى مكانه .

وما كدت أرى مظلته حتى انطلقت أجرى بسرعة البرق الى غرفة والدتى ، حيث كانت هى وجدتى قد جلستا متقابلتين ، تلعبان الورق على ضوء مصباح ... دخلت الغرفة راكضا . وألقيت نفسى على سرير بجانب أمى ثم قلت لها :

ـ ماما ... لقد جاء مدرسى ، وانا اشعر بصداع شديد ، فهل يمكن ان اعفى من الدرس اليوم ؟؟

وإنى لارجو ألاَّ يسمح لاى طفل بقراءة هذه القصة ، وإنى لواثق انها لن تؤخذ فى كتاب بين مقررات النصوص للمدارس الابتدائية . لان ما صدر منى كان دون شك تصرفا رديئا لم تلحقنى جزاء عليه أية عقوبة من أى نوع ... بل حدث العكس تماما إذ سرعان ما تحقق مطلبى . فقالت لى أمى :

ـ حســـنا ..

ثم التفتت الى الخادمة وهى تضيف :

ـ أخبرى المدرس أنه يستطيع ان يعود الى بيته .

ولقد كان واضحا انها لم تذهب فى تقديرها الى ان مرضى خطير الى ذلك الحد . لانها سرعان ما عادت تواصل اللعب ، دون أن تعنى بأى تعقيب . اما أنا فقد أخبأت رأسى فى الوسادة ، حيث ظللت اضحك ملء قلبى .. كان كل منا يفهم الآخر ... أنا وأمى ..

ولكن كلنا يعلم دون شك ، كم يصعب على ولد فى السابعة من عمره ان يحتفظ بمظهر المريض لمدة طويلة ، اذ لم تكد تمضى دقيقة واحدة حتى اقتربت من جدتى ، وقلت لها :

ـ يا ستو .. احكى لى حكاية .

وكان علىَّ ان اكرر هذا الطلب عدة مرات ، ولكن جدتى وامى ، لم تعيرا توسلاتى أى اهتمام ، الى أن التفتت أمى اليَّ وهى تقول منتهرة :

ـ لا تزعجنا يا ولد .. إنتظر حتى نفرغ من الشوط .

ولكنى بدورى عدت اقول :

ـ ستو ... أرجوك ... احكى لى حكاية .

ثم اضفت اقول لأمى : انها تستطيع أن تنهى الشوط غدا وأن تترك جدتى لتحكى لى الآن حكاية .. وأخيرا . رمت أمى الورق من يدها على الارض وقالت تخاطب جدتى :

ـ الافضل أن تجيبى طلبه .. لا فائدة معه ..

والارجح أن أمى ، قد تذكرت أنها ليست مرتبطة غدا بمدرس مزعج فى اليوم التالى . بينما يقع علىَّ أنا أن أعود الى تلك الدروس السخيفة .

وما كادت أمى تنهض عنا حتى اندفعت الى جدتى ، وأمسكت بيدها ، وأنا أكاد أرقص فرحا ... ثم سحبتها الى داخل (ناموسيتى) على السرير ، ثم اطبقت بيديَّ الاثنتين على الوسادة وأنا أقفز بها ، وأكاد أطير انفعالاً . ثم فى النهاية عندما صرت أكثر هدوءا ، قلت :

ـ والآن يا ستو ... دعينا نسمع الحكاية .

وأخذت جدتى تقول :

ـ وكان لهذا الملك زوجته الملكة .

ووجدتنى أقول بينى وبين نفسى ـ تلك قطعا بداية جيدة للقصة ... ملك ليس له الا ملكة واحدة . اذ المعتاد فى ملوك الحكايات والاساطير أن يكونوا مفرطين فى حيازة عدد من الملكات .. وعندما نسمع أن لدى الواحد منهم ملكتين فإن قلوبنا تغوص .. اذ لا بد أن تكون احداهما غير سعيدة ... أما فى هذه القصة ، فلا خوف من شىء كهذا .

وأما المعلومات التالية من قصة جدتى . فهى « ان هذا الملك لم يرزق ولدا ... » .

وفى سن السابعة من عمرى ، لم أكن أظن أن مما يهتم له المرء ألاَّ يكون له ولد ... اذ يمكن أن يكون قادما فى الطريق .

كما لم يثر اهتمامى أيضا أن أعلم أن هذا الملك قد ذهب الى الغابة ليمارس نوعا من الاعتكاف والعبادة عسى أن يرزقة الله ولدا ... لم يكن عندى ما يحملنى على الذهاب الى الغابة الا مطلب واحد هو أن أتخلص من لقاء المدرس الرهيب .

ولكن الملك ترك مع زوجته الملكة بنتا صغيرة ، كبرت مع الايام ، لتصبح أميرة جميلة .

وانقضت اثنتا عشرة سنة ، وظل الملك يواصل اعتكافه طلبا للولد ، دون أن يفكر أصلا فى ابنته الجميلة ، وقد بلغت أجمل مراحل التفتح والصبا . ومرت الفترة التى تتزوج فيها الصبايا ، ومع ذلك فالملك لم يعد ، وظلت الملكة تحترق شوقا وحزنا ، ثم تقول وهى تبكى أسى وتفجعا :

ـ هل قدر لابنتى ـ يا ترى ـ أن تموت دون زواج ؟ .. أى لعنة هذه التى تحيق بى .

ثم لم تجد الملكة بدا من أن تبعث بعض رجالها الى الملك فى الغابة . ليحاولوا اقناعه

بالعودة الى القصر ، حتى ولو لليلة واحدة ، وأن يتناول وجبة واحدة فى القصر ..

وتم لها ما التمسته . فقد وافق الملك على أن يعود الى قصره ، حيث قامت الملكة بنفسها بطهو أربعة وستين لونا من ألوان الطعام ... وأعدت لجلوسه مقعدا من خشب الصندل الثمين ، وقدمت ألوان الأكل فى أطباق من الذهب الخالص ، وأنواع الشراب فى كؤوس من الفضة . وأمرت الأميرة أن تقف خلف المقعد الملكى ، وفى يدها مروحة مصنعة كلها من ذيل الطاووس .. ودخل الملك قصره بعد اثنى عشر عاما من غيابه فى الغابة ، ومشى والاميرة خلفة تهف عليه بمروحتها وقد أضاءت القاعة كلها بجمالها الاخاذ ... فنظر الملك الى وجه ابنته ، لينسى كل ما ازدحمت به المائدة من ألوان الطعام وأخيرا سأل الملكة قائلا :

ـ أرجوك ... من هذه الفتاة التى يتألق جمالها ، كأنها صورة ذهبية للآلهه .. ؟؟....

ـ ابنة من هى يا ترى ؟

وصفعت الملكة جبهتها وصاحت :

ـ الويل لى ... يالسوء حظى ... أما تعرف أنها ابنتك ؟

وظل الملك صامتا حائرا لا يدرى ، ماذا يقول ثم قال أخيرا :

ـ ابنتى ... تلك الصغيرة الهزيلة كبرت واصبحت إمرأة ؟

وكيف يكون الامر غير ذلك ... أما تعرف أن اثنتى عشرة سنة قد انقضت .

وقال الملك :

ـ ولكن لماذا لم تزوجيها ؟

ـ كنت غائبا عنا . فكيف أجد لها زوجا ملائما ؟

وهنا انفعل الملك وبدا ثائرا مهتاجا حين أقسم يقول :

ـ تالله .. لتتزوجن الفتاة اول من تقع عليه عيناى حين أخرج من القصر غدا .

ولكن الاميرة لم تفعل شيئا ، سوى تحريك مروحتها من ريش الطاووس . وفرغ الملك من تناول طعامه .

وفى صباح اليوم التالى ، حين كان الملك يخرج من قصره رأى ابنا لاحد البراهمة ، يجمع حطبا فى الغابة خارج أبواب القصر ... كان فى السابعة او الثامنة من عمره .

وقال الملك :

ـ سأزوج ابنتى به .

ومن الذى يستطيع أن يعترض أمر الملك ؟

فما أسرع ما نودى الولد ، وما أسرع ما تم تبادل أكاليل الزواج بينه وبين الاميرة .
وعند هذه المرحلة من القصة ، اقتربت من جدتى وسألتها متلهفا :

ـ وبعـــدين ؟

وفى اعماق قلبى ، كانت تلهث أمنية مخلصة هى ان اكون ذلك الطفل الحطاب ابن السنوات السبع ... وكان الليل مازال يردد ثرثرة المطر ، وشعلة المصباح بجانب سريرى ، أخذت تتضاءل ، وصوت جدتى جعل يرتعش وهى تروى لى القصة ... وكل هذه الاشياء عملت على أن تخلق فى قلبى الساذج اعتقادا بأنى كنت اجمع الحطب فى فجر زمان لا حدود له ، فى مملكة ملك مجهول ، وأن أكاليل الزواج ، قد تبودلت ـ فى تلك اللحظة ـ بينى وبين أميرة جميلة كالملاك ... عقص وصفف شعرها باشرطة من الذهب وتدلت من اذنيها اقراط من الجوهر ، وعلى صدرها عقود من اللؤلؤ ، أما خصرها فقد أحاطته بسلسلة ، ترن كلما تحركت .

ولو كانت جدتى ممن يكتبون ويؤلفون القصص ، فلا حدود لما يمكن أن يوجه اليها من اسئلة تطالب بالمزيد من ايضاح ما يبدو أنه غامض ، أولا تفسير له من الاحداث . فمثلا ، ما الذى جعل الملك يقضى اثنتى عشرة سنة فى الغابة ؟ ثم ما الذى يجعل ابنة الملك تظل دون زواج كل هذا الزمن الطويل ... اذ أن مثل هذا التأخير فى زواج فتاة الى هذه السن يعتبر أمرا سخيفا .

وحتى إذا كانت جدتى ، لا تبالى بمثل هذه الاسئلة من آراء النقاد ، فإن ذلك لا يحول دون أن يتصايح هؤلاء النقاد عن الزواج نفسه . وأول ما يقال عنه ، إنه لم يقع قط .. فإذا تسامحنا وسلمنا بانه قد وقع فعلا ، فالسؤال التالى المحتوم . كيف يمكن ان يتم زواج بين أميرة من طبقة المحاربين ، وولد من طبقة البراهمة رجال الدين ... ولذلك فإن قراء قصة جدتى ، سرعان ما يتصورون ان الكاتبة تعمل ضد نظامنا وتقاليدنا وعاداتنا

الاجتماعية بطريقة غير سليمة وغير مباشرة ... وعندئذ سيأخذ كل منهم فى الكتابة الى الجريدة التى نشرت القصة ويوجهون اليها سهام الاحتجاج والنقد .

ولذلك فإنى لأضرع الى الآلهة من كل قلبى أن تولد جدتى ـ بعد موتها ـ جدة مرة أخرى ، وألاً يكون من حظها السيىء أن تولد فى شخص حفيدها عديم الحظ .

وبوثبة فرح وابتهاج سألت جدتى :

ـ وبعـــدين ؟

وأسترسلت الجدة تقول :

ـ وبعد ذلك ـ اخذت الاميرة زوجها الصغير وبنت له قصرا كبيرا بسبعة أجنحة حيث عكفت على إسعاده وترفيهه هناك .

ووجدتنى أرقص فى سريرى فرحا ، وتشبثت يداى بالوسادة انفعالا وتشوقا ... ثم أقول :

ـ وبعدين ؟

ولم يطل صمت جدتى ، فقد واصلت حديثها تقول :

ـ ذهب الولد الى المدرسة وتعلم الكثير من الدروس وحين ترعرع وشب عن الطوق أخذ زملاؤه يرددون على سمعه سؤالا هو :

ـ من هى تلك السيدة الجميلة التى تعيش معك فى القصر ذى الاجنحة السبعة ؟

وكان الفتى البرهمى حريصا على أن يعلم من هى حقا ؟

كل الذى تحتفظ به ذاكرته أنه كان فى ذات يوم يجمع أعواد الحطب فى الغابة ، عندما حدثت ضجة ... ولكن كل هذا وقع فى عهد بعيد بحيث لم يعد فى وسعه ان يتذكر كل التفاصيل .

ومرت أربع أو خمس سنوات وهو على هذه الحال .. يسأله الزملاء من تكون ؟.... من هى تلك السيدة الجميلة التى يعيش معها فى القصر ذى الاجنحة السبعة ؟ فاذا عاد الى القصر من المدرسة يتجه الى الاميرة ، حيث يقول لها بانكسار وحزن :

ـ زملائى فى المدرسة يسألوننى ـ من هى السيدة الجميلة التى اعيش معها فى القصر ذى الأجنحة السبعة ... فأخبرينى ... من أنت ؟

وأجابته الأميرة :ـ دعنا نؤجل الكلام فى الموضوع اليوم ... ولسوف اخبرك فى يوم ما .
ولكن الفتى البرهمى ، ظل يسألها بعد ذلك كل يوم :ـ من انت ؟ كما ظلت الاميرة بدورها تجيبه : دعنا نؤجل الكلام اليوم . سأخبرك فى يوم آخر .

وهكذا مضت أربع أو خمس سنوات أخرى . أخيرا نفد صبر الفتى ، ولم يجد بداً من أن يقول :ـ اذا لم تخبرينى اليوم أيتها السيدة الجميلة من تكونين ، فإنى سأترك القصر ذا الاجنحة السبعة .

وعندئذ قالت الاميرة :

ـ سأخبرك غدا بالتأكيد

وعاد الفتى فى اليوم التالى من المدرسة ليقول لها : ـ

ـ والآن ... أخبرينى ... من تكونين ؟

وأجابته الاميرة قائلة : ـ

ـ الليلة ، بعد تناول العشاء ـ عندما تكون فى السرير سأخبرك من أنا ؟ ووافق الفتى البرهمى ، وأخذ يعد الساعات فى انتظار الليل ...

أما الاميرة فقد نثرت الزهور البيضاء على السرير الذهبى ، وملأت المصباح الذهبى بالزيت العطرى ، ثم أشعلته ، وزينت شعرها ، وارتدت قميصا أزرق ، وأخذت هى أيضا تعد الساعات فى انتظار الليل .

وفى المساء كان زوجها ، الفتى البرهمى ، ينتظر تناول عشائه على أحر من الجمر ولكن بعد أن فرغ من العشاء ، ذهب الى السرير الذهبى ، فى غرفة النوم ، وقد انتثرت عليه الزهور البيضاء قال لنفسه :

ـ سأعرف الليلة حتما ، من هى هذه السيدة الجميلة فى القصر ذى الاجنحة السبعة .
وتناولت الاميرة ما بقى من عشاء زوجها ، ودخلت غرفة النوم ... فقد كان عليها أن تكشف فى تلك الليلة عن حقيقة شخصية السيدة الجميلة التى تعيش فى القصر ذى الاجنحة السبعة .

وعندما صعدت الى السرير وجدت أن أفعى قد تسللت من الزهور البيضاء ، ولدغت

الفتى البرهمى ... وكان زوجها الفتى مضطجعا على سرير من هذه الزهور ... وعلى وجهه شحوب الموت ...

وفجأة توقف قلبى عن الخفقان ، وسألت جدتى بصوت تخنقه الدموع :

ـ وبعـــدين ؟

وقالت جدتى :ـ

ـ وبعد ذلك ....

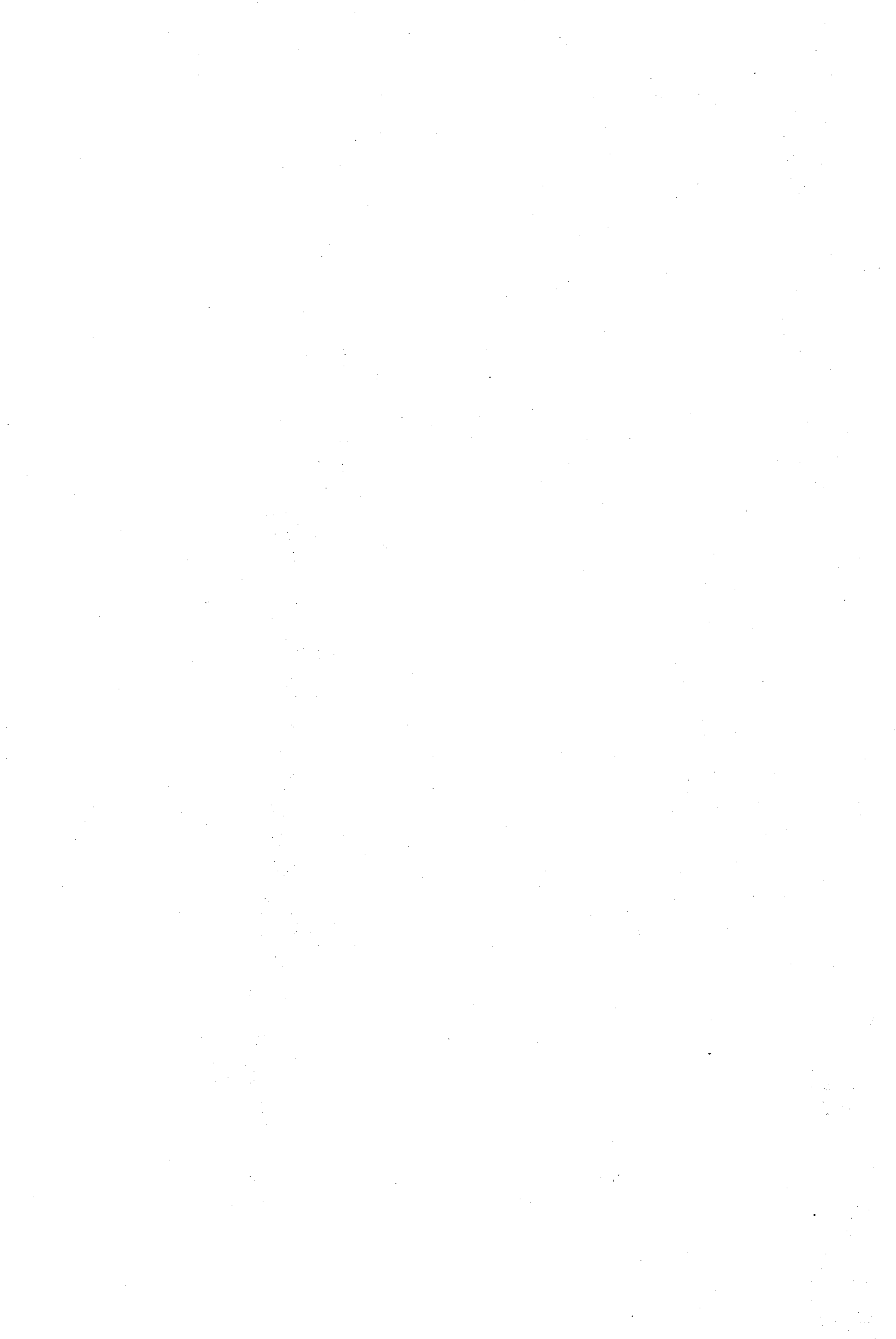
ولكن ما فائدة أن أمضى فى القصة بعد هذا ؟

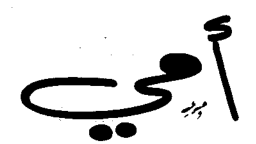
اذ كان لابد أن تقودنا الى المزيد . والمزيد من المستحيلات . والطفل فى السابعة من عمره لم يكن ليعرف أنه وإن كان هناك المزيد من (وبعدين ؟) بعد الموت ، فلا الجدة ، ولا جدة الجدة تسطيع أن تخبرنا بشىء . ولكن إيمان الطفل بما يسمع لا يعترف بالهزيمة قط ، ولذلك فقد يقدم حتى على انتزاع عباءة الموت نفسه ليمنعه من الاقتراب .. ولا شك أن مما يثير سخطه أن تقف قصة كهذه وهى تروى فى مساء تخلص فيه من استاذه العتيد ، فجأة ، وبهذا الشكل . ولذلك فإن على الجدة أن تستدعى اسطورتها من الغرفة المغلقة أبدا على النهاية الرائعة ... وهى تستطيع أن تفعل ذلك بمنتهى البساطة . اذ كل ما تقوم به هو أن تضع جثة الفتى على ورقة من شجرة الموز ، ثم تتركها تطفو على مياه النهر بينما يقرأ عليها الساحر بعض تعويذاته .

ولكن الموت فى تلك الليلة المطيرة ومع ضوء المصباح الشاحب . يفقد كل رهبته فى ذهن الطفل ، ويبدو وكأنه ليس أكثر من نوم عميق فى ذات ليلة ... وعندما تنتهى القصة فإن الاجفان ترتخى مثقلة بالنعاس ..

وهكذا فإننا نرسل الطفل الصغير طافيا على ظهر النوم على مياه الزمن الراكدة .. ثم فى الصباح نتلو عليها بضع سطور من التعاويذ ، لنعيده الى دنيا النور والحياة .

* * *





أمي

كان السيد أدهارلال يعيش على ماتدره عليه الثروة التى ورثها عن أبيه من أرباح فكنت لاترى فى مجلسه ، سوى سماسرة ، يبحثون موضوع قرض من القروض ، وهم يدخنون نارجيلة مموهة بالفضة أو موظفين من مكتب وكيله جاءوا يبحثون شروط رهن من الرهون ، أو مقدار رسم طوابع معينة ، وكان شديد الحرص على نقوده بحيث تفشل أية محاولة يبذلها أى مخلوق للوصول الى جيبه ، حتى ولو كانت من فتيان نادى الكرة المحلى فى المنطقة التى يسكنها .

وحين بدأت هذه القصة ، كان قد دخل فى حياته ضيف جديد ، اذ ولدت له زوجته ولدا ، بعد فترة طويلة من اليأس .

وكان الطفل شبيهاً بأمه .. له عيناها الواسعتان ، وأنفها الجميل ، وبشرتها البيضاء . وقال صديق يستظل بظله عن الطفل معلقاً .. أنه خليق بأسرته النبيلة . ثم سموه فينو جوبال .

ولم يسبق قط لزوجة أدهارلال أن أعربت عن أية فكرة تعارض أو تختلف عن آراء زوجها فى نفقات المنزل . ولئن كانت تدور بين حين وآخر مناقشات خاصة حامية حول تلك بعض اللوازم الضرورية ، فانها ـ قبل مجىء الطفل ـ كانت تكتفى بأن تعلن هزيمتها بأختصار صامت . أما الآن ، فأن أدهارلال لم يعد قادراً على الاحتفاظ بسلطاته المطلقة وأصبح يتنازل ، تدريجياً ، عن رأيه إذا كان الأمر متصلا بشراء أشياء لأبنه .

وكلما كبر فينوجوبال ، وترعرع ، تعود أبوه تدريجياً أن ينفق المال فى سبيله ، فقد جاءه بمدرس عجوز ، مشهور بعلمه ، كما هو مشهور بقدرته على انجاح الفتيان ، الذين يحتمل أن يسقطوا فى الاختبار ، ولكن مرانه فى هذا النوع من التعليم كان قد أفقده لطف المعشر

ورقة الحاشية ، ومع أنه قد بذل جهده كله ليكسب قلب الصغير ، فأن البقية الباقية فى طباعه من لين اللطف الإنسانى كانت قد أصبحت مرة المذاق منذ البداية ، فلم يستسغها الطفل ، ورفض استمرارها بأصرار ، ولم ترتح إليه الأم أيضاً ، وكانت شكواها أن مجرد رؤيته ـ وحدها ـ تمرض الطفل وتسقمه .. فلم ير المدرس تجاه ذلك كله بدا من الانسحاب .

وفى هذا الظرف تماماً ، ظهر « هارلال » فى ثيابه القذرة ، وحذائه الممزق البالى المصنوع من الخيش . وكانت أم هارلال ـ وهى أرملة ـ قد حرصت على بقائه فى المدرسة رغم الكثير من المتاعب والصعاب ، وظلت تنفق على تعليمه المال القليل الذى تتقاضاه من الطهو فى المنازل ، أو من خفق الأرز ، حتى نجح الفتى فى الحصول على شهادة « المتريك » ثم قرر الالتحاق بالجامعة .

وكنتيجة للجوع الطويل ، كان وجه هارلال الممصوص قد دق وأستطال حتى أصبح أشبه شىء برأس كومورين فى خريطة الهند ، والجزء العريض الوحيد فيه ، كان جبهته التى تشبه بدورها سلسلة جبال هيالايا .. وسأل الخادم ، هارلال عما يريد ، فأجابه فى أضطراب ووجل ، أنه يرجو أن يرى السيد ادهارلال صاحب البيت . وأجابه الخادم فى عنف .

ـ لا سبيل الى أن تقابله اطلاقاً .

وحين كان هارلال ، غارقاً فى حيرته ، لا يدرى ماذا يفعل وقد فشلت محاولته ، جاء فينوجوبال ، إلى الباب بعد أن فرغ من لعبه فى الحديقة وسمع صراخ الخادم فى وجه هارلال يأمره بالانصراف ، فما أشد ما أثاره ذلك وهو يصرخ قائلا :

ـ كلا .. لن ينصرف .

ثم قاد هارلال إلى غرفة أبيه ..

وكان أدهارلال ، قد أستيقظ لتوه من نومه بعد الظهر ، وجلس على مقعده المريح من الخيزران فى الشرفة العليا ، يهز رجليه ، وجلس صديقه راتيكانتا على كرسى بجانبه يستمتع بتدخين الشيشة كالمعتاد . وسأل أدهارلال الشاب عن مدى ثقافته ، فأحنى هذا رأسه ، وأجاب أنه قد نجح فى أمتحان « المتريك » . وأبدى راتيكانتا دهشته من أن يكون شاب

فى مثل سنه ، متخلفاً عن أمثاله الى هذا الحد ، والتزم أدهارلال الصمت . وكان مما يسر راتيكانتا على وجه خاص ، أن يعذب جميع أولئك الذين يعتمدون ، أو يحتمل أن يعتمدوا على صديقه الثرى .

وخطر لأدهارلال ، فجأة أن من الممكن أن يستخدم هذا الشاب مدرساً لأبنه ، فسرعان ما وافق على أن يدخله فى خدمته لقاء خمس روبيات فى الشهر ، مع النوم والأكل ..

* * *

وفى هذه المرة أمكن أن تظل « وظيفة » المدرس فى منزل أدهارلال مشغولة ، فترة من الزمن أطول من أى وقت مضى ، فقد أصبح هارلال وتلميذه الصغير صديقين حميمين منذ اللحظة الأولى ، إذ لم يسبق قط أن أتيحت له فرصة أن يحب مخلوقاً صغيراً من البشر ، فقد كانت أمه من الفقر والعوز بحيث لم ينل قط شرف اللعب مع الأطفال الذين كانت تخدم فى بيوتهم ، ولكنه لم يداخله أى ريب فى ذخيرته من الحب التى ظلت تتراكم فى قلبه حتى الآن .

ولم يكن فينو أقل سروراً ، وأرتياحاً ، إذ وجد فى هارلال رفيقاً ، فقد كان الأبن الوحيد فى المنزل وكانت النظرة الى أختيه الصغيرتين أنهما ليستا خليقتين بأن تلاعباه ، وهكذا كان مدرسه الجديد ، هو رفيقه الذى يحتمل فى صبر وسعة صدر ، عبئاً لا يتجزأ من ظلم صديقه الطفل .

وبلغ فينو الحادية عشرة من عمره ، وأجتاز هارلال امتحان الشهادة المتوسطة للجامعة ، وفاز بدراسة مجانية للسنة القادمة وهو يجاهد الآن لينال درجة بكالوريوس فى الفنون ، فاذا ما أنتهت محاضرات الكلية ، أصطحب فينو ، الى الحدائق العامة حيث يقص عليه قصص أبطال تاريخ الأغريق ، وروايات فكتور هوجو ، وكان الفتى على الرغم من محاولة أمه الاحتفاظ به بجانبها قد أعتاد ألاَّ يطيق صبراً عن اللحاق بمدرسه بمجرد عودته من المدرسة .

وكانت نابنيبال ، أم الطفل ، تستاء من هذه الظاهرة ، وقد ذهبت فى تفكيرها ، الى حد أن هارلال ، يواصل تنفيذ خطة مدبرة بدهاء واحكام يستحوذ بها على ولدها ليضمن

لنفسه البقاء فى مركزه كمدرس .. ولم يطل بها الأمر حتى تحدثت إليه ذات يوم من وراء حجاب تقول :

ـ « إن واجبك هو أن تدرس أبنى ساعة أو ساعتين فى الصباح والمساء ، ولكن لماذا تحرص على أن تظل معه دائماً ؟. لقد كاد الطفل أن ينسى والديه .. ويجب أن تفهم أن رجلا مثلك لا يصلح أن يكون رفيقاً لطفل فى هذا البيت » .

وأختنق صوت هارلال ، وهو يجيب أنه سيقتصر على أن يظل مدرساً فقط منذ اليوم ، وسيظل بعيداً عنه فى الأوقات الأخرى .

وكان من عادته أن يبدأ مراجعة المواد التى يدرسها فى الكلية ، قبل الفجر بوقت طويل ، ويجىء الصبى إليه بمجرد أن يفرغ من غسيل وجهه بعد أن يستيقظ من النوم . وكانت توجد فى حديقة الدار بركة ماء صغيرة . اعتاد هارلال وتلميذه ، أن يطعما أسماكها معا بفضلات الأرز ، ثم ينصرف فينو الصغير الى بناء بيت وحديقة أسطورية صغيرة ، فى ركن من حديقة القصر ، لها أبواب صغيرة وأسوار وممرات مفروشة بالرمل والحصى . وحين ترتفع الشمس وتشتد حرارتها ، يذهبان معا الى البيت حيث يأخذ فينو درس الصباح ..

وفى هذا اليوم ، استيقظ فينو فى وقت مبكر جداً ، لأنه أراد أن يسمع نهاية قصة كان هارلال قد بدأها فى مساء اليوم الماضى ، ولكنه لم يجد مدرسه ، وحين سأل عنه البواب أخبره ، أنه قد خرج . وحين أزف موعد الدرس جلس فينو فى هدوء غير طبيعى بل لم يسأل هارلال عن المكان الذى ذهب اليه ، ولكنه واصل دراسته بطريقة ميكانيكية ، وحين جلس لتناول فطوره مع والدته سألته عما حدث فأغضبه وجعله لا يأكل شيئاً ؟ ولكنه لم يجب بشىء . وبعد انتهاء الفطور ظلت أمه تلح عليه بأسئلتها ، فأذا به ينفجر باكياً :

ـ « مدرسى .. مدرسى » وسألته أمه عما أصاب مدرسه .. ولكن فينو لم يستطع أن يقول لأمه ما الذى حدث .

وعادت تسأله : « هل كان مدرسك يقول لك شيئاً عنى ؟.. قل لى ما الذى سمعته منه بالضبط ؟.. » ولكن فينو لم يستطع أن يفهم سؤالها فى هذه المرة ، وغادرها لائـذا بالصمت .

* * *

وحدث بعد هذا مباشرة ، أن وقع حادث سرقة فى بيت السيد أدهارلال واستدعى البوليس للتحقيق ، وقد فتش كل شيء حتى حقائب أدهارلال . وعلق راتيكانتا ، صديق أدهارلال قائلا :

ـ « ان من يسرق شيئاً ، لا يخفى ما سرق فى حقائبه » .

وأستدعى ، أدهارلال ، مدرس ابنه الشاب وقال له :

ـ « سوف لا يكون مما يلائمنى ، أن أسمح لك بالبقاء فى هذا البيت ، وعليك منذ اليوم أن تسكن فى مكان غير هذا ، وأن تجيء لتدريس ابنى فى الأوقات المعتادة فقط » .

وعلق راتيكانتا على ذلك ، وهو يسحب أنفاس شيشته .

ـ « هذا عرض طيب .. طيب للطرفين » .

ولم ينبس هارلال بحرف ، ولكنه أرسل رسالة يقول فيها إنه لا يستطيع أن يظل مدرساً لفينو منذ اليوم .

وحين عاد فينو من المدرسة وجد غرفة مدرسه خالية ، وقد اختفى منها كل أثر له حتى حقيبته الحديدية المحطمة ، وكان الحبل الذى يعلق عليه ملابسه مايزال مشدوداً فى مكانه من الغرفة ، ولكنه خال ، ليس عليه ملابس المدرس ولا مناشفه كالمعتاد . رأى على المنضدة التى كان ينشر المدرس عليها كتبه وأوراقه فيما مضى وعاء من الزجاج فيه سمكة ذهبية .. وقد ألصقت على الوعاء ورقة كتب عليها اسم « فينو » بخط هارلال ..

وأسرع الصبى الى أبيه يسأله عما حدث .. فقال له إن هارلال قد استقال من عمله ، فذهب فينو إلى غرفته ورمى نفسه على سريره ، وظل يبكى بمرارة وأسى ، دون أن يفلح أبوه فى الترفيه عنه .

وفى اليوم التالى ، كان هارلال يجلس على سريره الخشبى ، يفكر فيما إذا كان ينبغى عليه أن يواظب على الدراسة فى كليته أو يتوقف ، حين رأى خادم أدهارلال ، يدخل غرفته ووراءه فينو ..

وما كاد فينو يدخل الغرفة ، ويرى هارلال ، حتى أسرع إليه ، والقى ذراعيه حول عنقه ، وهو يرجوه أن يعود معه الى البيت .

ولم يستطع هارلال حينئذ أن يبين أسباب عدم استطاعته كلياً أن يعود إلى ذلك

المنزل ، ولكنه منذ ذلك اليوم ، لاتكاد تمر بذهنه ذكرى الذراعين اللتين تعلقتا به ، وذلك الصوت المتوسل الباكى ، حتى يشعر بغصة تقف فى حلقه .

ووجد هارلال ، بعد انفعاله الباكى على صديقه الصغير ، أن ذهنه لم يعد يستقر على حال ، وأن أمله فى أن ينال دراسة مجانية لعام آخر قد أصبح ضئيلا جداً ، حتى ولو نجح فى الاختبار .. وأدرك فى نفس الوقت أنه لن يستطيع مواصلة دراسته ، دون أن يحصل على هذه الدراسة المجانية ، ولهذا فقد قرر أن يحصل على عمل .

ولحسن طالعه ، حدث أن استلطفه المدير الإنجليزى ، لاحدى الشركات ، للنظرة الأولى ، وبعد أن تحدث إليه قليلا سأله عما إذا كانت قد سبقت له أية تجربة أو خبرة بالعمل ؟ وهل يستطيع أن يقدم شهادات تثبت كفاءته ؟ . ولم يستطع هارلال أن يجيب بشىء سوى كلمة « لا » . ومع ذلك فقد عرض عليه المدير عملا فى الشركة لقاء عشرين روبية فى الشهر ، مع خمس عشرة روبية سلفة على رواتبه المقبلة ، ليتمكن من أن يحضر الى المكتب فى الهندام اللائق ، وقد عهد إليه السيد المدير ، بعد ذلك بعمل يستغرق وقته كله . أصبح عليه أن يظل فى المكتب الى ساعة متأخرة من المساء . ولكنه استطاع بهذه الطريقة أن يفهم عمله ، أسرع من زملائه ، حتى لقد أخذ زملاؤه ينافسونه ، ويحاولون أن ينالوا منه دون جدوى .. وماكاد مرتبه يرتفع إلى أربعين روبية فى الشهر حتى استأجر بيتاً صغيراً فى زقاق ضيق ، وجاء بوالدته لتعيش معه .. وهكذا عادت السعادة الى أمه بعد انتظار مرهق دام سنوات طويلة من شقاء متواصل مرير ..

* * *

وكانت أم هارلال ، كثيراً ماتقول إنها تود أن ترى فينو جوبال الذى سمعت عنه كثيراً ، بل وتمنت لو أنها تطهو له بعض الألوان بيدها لو اقترح عليه ابنها أن يجىء ولو مرة واحدة للعشاء . ولكن هارلال ظل يتجنب الموضوع قائلا : ان بيته ليس من السعة بحيث يستطيع أن يدعو فينو للعشاء فيه .

وسمع هارلال ، فيما بعد ، أن أم فينو قد توفيت ، فلم يطق أن يتريث دقيقة واحدة ، بل ذهب لتوه ، الى بيت أدهارلال ليرى فينو .. ومنذ ذلك اليوم . ظلا يلتقيان مراراً ..

ولكن تغيرت الأيام ، إذ ماكاد شارب فينو يطر ، حتى أخذ يظهر بمظهر الشـاب العصرى ، وأصبح له عدد كبير من الأصدقاء الذين ، ينسجمون مع وضعه الحاضر ، وأختفى من غرفته كرسى الدراسة والمكتب الذى تغمره بقع الحبر ، وبدت الغرفة كأنها ستنفجر تيها وخيلاء ، بما فيها من الأثاث المترف ، من مرايا وطنافس وغيرها . وقد دخل فينو الكلية ولكنه لم يبد كثيراً من الاهتمام ، لأن يتخطى حدود الشهادة المتوسطة للجامعة .

وتذكر هارلال ، رجاء والدته القديم ، فى أن يدعو فينو للعشاء معه ، وتردد طويلاً فى بادىء الأمر ، ولكن حين دعاه أخيراً وجاء ، استطاع بوجهه الجميل أن يأسر قلب الأم . على أنه ماكاد العشاء ينتهى حتى أخذ يعلن رغبته فى الخروج ، ثم قال وهو يلقى نظرة على ساعته الذهبية : ان لديه موعداً فى مكان آخر ، ثم استقل عربته الواقفة عند الباب ، وأنطلق بينما تنهد هارلال وهو يقول لنفسه انه لن يدعوه مرة أخرى ..

وفى ذات يوم ، كان هارلال عائداً من مكتبه الى البيت ، حين لاحظ شخصاً قابعاً فى الغرفة المظلمة فى الطابق الأرضى من بيته ، وكان يوشك أن يمر به دون أن يشعر بوجوده ، لولا أرج عطر ثقيل استرعى انتباهه ، فسأل من هناك ؟ وسمع من يقول :

ـ هذا أنا ..

ـ ماذا حدث يا فينو .. متى جئت إلى هنا ؟

ـ جئت منذ ساعات ، ولم أكن أعلم أنك تعود متأخراً الى هذا الحد .

وصعدا الى الطابق العلوى معاً ، وأشعل هارلال المصباح ، وسأل فينو عن أحواله فأجابه ، ان فصول الكلية أصبحت لا تطاق بالنسبة له اطلاقاً .. وأن والده لا يدرك صعوبة استمراره فى البقاء فى نفس السنة الدراسية ، عاماً بعد آخر ، الى جانب طلاب أصغر منه كثيراً .

وسأله هارلال ، عما اعتزم أن يفعله حيال ذلك ؟ وقال الشاب : إنه يريد الذهاب الى انجلترا ، حيث يدرس المحاماة ، وضرب مثلاً ، بطالب ، متأخر فى دراسته فى الكليـة ويستعد للذهاب الى هناك .

وسأله هارلال ، عما إذا كان قد استأذن والده ؟ وأجاب فينو : ان أباه لا يريد أن يصغى الى كلمة واحدة عن الموضوع ، الى أن يجتاز امتحان الدراسة المتوسطة . وهذا

مستحيل بالنسبة إليه ، فأقترح هارلال من جانبه أن يذهب هو الى والده وأن يرجوه فى ذلك .

ولكن فينو أصر قائلاً :

- « كلا .. لا أستطيع أن أوافق على فكرة كهذه أطلاقاً » .

وطلب إليه هارلال أن يجلس للعشاء ، وفى فترة انتظارهما ، وضع يده على كتف الشاب وهو يقول :

- « فينو .. يجب ألاّ تختلف مع أبيك ، وأحذر أن تترك البيت » .

نهض فينو غاضباً ، وهو يقول : انه على استعداد لأن يذهب الى أى مكان آخر إذا لم يكن هارلال يرتاح الى بقائه لديه .

وأمسكه هارلال من يديه ، ورجاه ألا يذهب قبل أن يتعشى ، ولكن فينو ، سحب يده بعنف واتجه خارجاً من الغرفة ، حين دخلت أم هارلال بالطعام ، وما كادت تراه يهم بالخروج ، حتى تشبثت به ، وتوسلت إليه أن يبقى . فعاد الى مكانه ، ولكن فى كثير من الغضب والاستياء .

وفى اللحظة التى كان يجلس فيها على مقعده للعشاء ، سمع صوت عربة تقف عند الباب .. ودخل الغرفة أحد الخدم ليظهر وراءه السيد أدهارلال نفسه . وشحب وجه فينو لرؤية أبيه ، وغادرت الأم الغرفة وشرع أدهارلال ـ وقد أستشاط غضباً وحنقاً ـ يمطر هارلال بأقبح الشتائم والنعوت الى أن قال :

- « لقد حذرنى راتيكاتتا كثيراً .. ولكنى لم أستطع أن أصدق أنك رجل بهذا الخبث والمكر .. وهذا اختطاف .. اختطاف محض .. ولسوف أقدمك الى البوليس » .

وتبع فينو أباه صامتاً الى خارج البيت .

وكانت الشركة التى يعمل فيها هارلال قد شرعت تشترى كميات كبيرة من الأرز والعدس من أسواق الأرياف . وكان على هارلال أن يأخذ معه ، صباح السبت من كل أسبوع فى قطار الصباح الباكر قيمة ماتكون الشركة قد عقدت صفقاته من السلع خلال الأسبوع ، وأن يقوم بدفع المال الى السماسرة والوسطاء الذين ينتظرونه فى مكتبه بالأوراق اللازمة والكمبيالات . ولقد دارت بين موظفى الشركة عدة مناقشات حول هارلال ، وكيف

يوثق به فى مثل هذا العمل دون أن يقدم أى نوع من الضمان ، ولكن المدير كان قد أخذ على عاتقه جميع المسؤوليات ، وقال : انه لا حاجة الى الضمان اطلاقاً . وكان هذا العمل الخاص يستمر من منتصف ديسمبر الى منتصف أبريل . وكثيراً ما كان هارلال يعود من مهمته فى وقت متأخر من الليل .

* * *

وفى ذات يوم ، بعد عودته من العمل ، أخبرته أمه أن فينو قد جاء وسأل عنه ، وقد أقنعته أن يتعشى معها .

وقد تكرر هذا أكثر من مرة ، وكانت أمه تقول : انها لم تجد بدا من ذلك ، لأن الشاب قد فقد أمه ، ثم تتحدث عنه ، وعما دار بينه وبينها من أحاديث ، والدموع تترقرق فى عينيها اشفاقاً وأسى .

وجاء فينو مرة أخرى ، وانتظر الى أن عاد هارلال من عمله وتحدث إليه حديثاً طويلاً عن أحواله ومشاكله ثم قال :

ـ « لقد أصبح أبى فى الأيام الأخيرة ، سريع التهيج والانفعال الى حد لم أعد أستطيع معه أن أحتمل الحياة الى جانبه ، ثم انى أعلم أنه يفكر فى الزواج مرة أخرى .. وراتيكانتا يبحث له عن زوجة ملائمة ، وهما يتآمران ويتواطآن على ذلك دائماً .. وقد مر وقت ، كان يقلق فيه أبى على غيابى عن المنزل ، حتى ولو كان ذلك لبضع ساعات ، أما الآن ، فأنه لا يعبأ بغيابى ، حتى ولو استمر أسابيع بطولها ، بل على العكس من ذلك يشعر ، بالارتياح والخلاص ، وأشعر أنى لن أستطيع البقاء فى البيت لو تم هذا الزواج .. وعليك أن ترشدنى فى هذا الأمر الى سواء السبيل .. وانى لأريد أن أستقل بحياتى عنه منذ اليوم » .

وأحس هارلال بكثير من الحزن والأسى ، ولكنه لم يستطع أن يتبين سبيلاً لمساعدة تلميذه القديم . وقال فينو انه قد صمم على السفر الى انجلترا ليدرس القانون .. ولابد له أن يحصل على المال الذى يحتاجه للرحلة عن غير طريق والده .. ولهذا فهو قد يقترض المبلغ لقاء ايصال ، وعندئذ فلابد لوالده من أن يدفع حين يرفع عليه الدائن قضية .. وأنه

بهذا المال يستطيع أن يذهب ، فاذا وصل الى انجلترا ، فان والده سيجد نفسه ملزماً بأن يرسل اليه مايحتاج من نفقات .

وقال هارلال :

ـ « ولكن من الذى سيقرضك المال ؟ » .

وقال فينو :

ـ « أنت ... » .

وهتف هارلال مندهشاً :

ـ « أنا ؟ .. » .

قال فينو :

ـ « أجل .. فقد رأيت الخادم ينقل إليك رزماً وأكواماً من النقود فى الحقائب هنا » .

ـ « ولكن الخادم والأموال ، ليست لى .. » .

ثم أخذ يشرح هارلال السبب فى نقل الأموال الى بيته فى الليل ، وأنها كالطيور التى تأوى الى أعشاشها مساء لتغادرها فى بكرة الصباح .

ـ ولكن الا يستطيع المدير أن يقرض مثل هذا المبلغ ؟ .

ـ قد يستطيع ، إذا قدم والدك ضماناً بالدفع .

وأنتهى الحوار بينهما عند هذا الحد ..

ولكن بعد بضعة أيام أخرى ، فى مساء الجمعة ، وقفت أمام باب البيت الذى يسكن فيه هارلال عربة يجرها جوادان . وحين أعلن قدوم فينو ، كان هارلال على أرض غرفة نومه يعد بعض النقود ، ودخل فينو فى هندام غير مألوف ، إذ كان يرتدى بدلاً من ملابس سكان البنغال ، معطفاً مما يرتديه أفراد الطائفة الباريسية فى الهند ، وسروالاً ، وعلى رأسه طاقية مزخرفة ، وأصابع يديه تلتمع بما عليها من خواتم ، بينما تتدلى من عنقه على صدره قلادة من الذهب ، وفى جيبه ساعة ذهبية ، وفى أكمام قميصه أزرار من الماس . وسأله هارلال حالا عن جلية الأمر ، وعن سبب ظهوره بهذه الملابس الغريبة .

وأجابه فينو قائلاً :

ـ « أبى سيتزوج غداً .. وقد حاول كثيراً أن يخفى ذلك عنى ، ولكنى اكتشفت

الحقيقة ولشد ما سر وتهللت وانطلقت أساريره حين رجوته أن يأذن لى بالذهاب الى بيتنا الخلوى فى باركبور لبضعة أيام . وانى لذاهب ، فأرجو الله ألاَّ أعود الى الأبد » .

وحين رأى نظرات هارلال ، تتجه الى الخواتم التى فى يديه قال إنها حلى أمه .

وسأله هارلال ، عما إذا كان قد تناول عشاءه فأجاب .

ـ « أجل .. وأنت ؟ » .

ـ « كلا .. ولا أستطيع أن أترك هذه الغرفة الى أن أدخل النقود ، فى هذا الصندوق الحديدى وأحكم اغلاقه .. » .

وقال فينو :

ـ « اذهب أنت وتناول عشاءك ، وسأقوم بالحراسة هنا ، فلابـد أن أمـك تنتظـرك الآن .. » وتردد هارلال قليلاً ، ثم ذهب وتناول عشاءه ، وعاد بعد فترة قصيرة ، ومعه أمه ، وجلس ثلاثتهم يتحدثون بين حقائب النقود .

وفى منتصف الليل تقريباً ، نظر فينو الى ساعته ، ووثب يقول إنه يخشى أن يفوته القطار ، ثم طلب من هارلال أن يحفظ لديه الخواتم والساعة والقلادة الى أن يطلبها منه . ووضع هارلال كل ذلك فى حقيبة من الجلد وأغلق عليها صندوقه الحديدى ، وغادر فينو المنزل . وكانت حقائب أوراق النقد ، قد وضعت فى مكانها من الصندوق ، ولم يبـق إلا القليل من قطع النقد المعدنية عدها ثم ألحقها بغيرها فى الصندوق .

وأضطجع هارلال بالقرب من باب الغرفة ووضع المفتاح تحت وسادته ثم نام ..

ورأى فيما يرى النائم أن أم فينو كانت ترفع صوتها لائمة عاتبة من وراء ستار ، ولم تكن كلماتها مفهومة ، ولكن أشعة ذات ألوان مختلفة من اللآلىء والجواهر ، التى تتحلى بها ظلت تخترق الستار ، كأنها الابر تهتز وتتذبذب فى شدة وعنف .. وبذل هارلال جهداً ، لينادى فينو ولكن صراخه كان يحتبس فى حلقه وسقطت الستارة أخيراً ، واستيقظ من نومه مذعوراً ووجد كل شىء حوله مظلماً إذ كان الهواء قد دفع احدى النوافذ ، فانفتحت وانطفأ المصباح . وكان العرق يتصبب من جسمه ، فأوقد المصباح ، ورأى الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً ، فلم يعد هناك من الوقت مايكفى لأن يعود الى نومه ، إذ كان عليه ، أن يستعد لرحلته المعتادة فى بكرة الصباح .

وكان قد فرغ من غسل وجهه ويديه ، حين هتفت أمه تناديه من غرفته ..

ـ « ما الذى أيقظك الآن يابنى ؟ » .

وكان من عادة هارلال أن يصطبح بوجه أمه ، تفاؤلاً وطلبا للبركة وحسن الطالع فى يومه فذهب إليها ، وقالت حين رأته :

ـ « لقد كنت أحلم بأنك ذاهب ، لتجىء الى البيت بالعروس » .

وعاد هارلال الى غرفته ، وشرع يخرج حقائب النقد وفجأة أحس كأن قلبه يكف عن الخفقان .. فقد وجد ثلاث حقائب خالية مما فيها من أوراق النقد ، وذعر ، وهز الحقائب وضرب بها جدران الصندوق ، ولكن هذا كله أكد مخاوفه من جديد . ومع ذلك فقد فتحها ، وأخذ ينفض كلا منها بكل مافيه من قوة ، ولكنه لم يجد شيئاً سوى رسالتين من فينو .. احداهما باسم والده والأخرى باسمه .

وفتح هارلال رسالته وحاول أن يقرأها ، ولكن بدا له كأن الكلمات تتراكض وتتسابق أمام عينيه ، فرفع ضوء المصباح ، ولكنه أحس بأنه لايفهم شيئاً مما يقرأ ، ومع ذلك فالغرض من الرسالة كان واضحاً .. فقد أخذ فينو ثلاثة آلاف روبية من أوراق النقد ، وهو مسافر الى انجلترا .. والباخرة التى سيسافر عليها تبحر قبل الفجر وانتهت الرسالة بهذه السطور :

ـ «لقد أوضحت كل شىء فى الرسالة الموجهة الى أبى .. وسيدفع الدين الذى علىّ ، وهذا علاوة على أن قيمة حلى والدتى ، التى وضعتها لديك .. تزيد كثيراً ، عن المبلغ الذى أخذته » .

وأغلق هارلال باب غرفته وأستأجر عربة ، ثم أسرع الى الميناء ، ولكنه لم يكن يعرف اسم الباخرة التى استقلها فينو .. وظل يركض هنا وهناك على الرصيف حيث علم أن باخرتين قد أبحرتا الى انجلترا قبل الفجر ، وكان من المستحيل أن يعرف أيهما التى تحمل فينو .. ولاكيف يصل اليها ..

وحين عاد الى منزله كانت الشمس قد ارتفعت ، وقد استيقظت معها كلكتا ، وكان كل شىء يبدو ملوثاً أمام عينيه ، وأحس كأنه يدفع أمامه حاجزاً رهيباً لايراه ، ولكنه جبار لايرحم ولايتزحزح .. وقد وقفت والدته على شرفتها وسألته فى قلق . أين كان ؟ .. فأجابها

فى ضحكة مغتصبة . لقد ذهبت لاجىء بعروسى .. ثم سقط على فراشه مغمى عليه .

وبعد فترة من الوقت ، عاد هارلال الى صوابه . وما كاد يفتح عينيه حتى طلب الى والدته أن تتركه ، ودخل غرفته ثم أغلقها بينما ظلت والدته على باب الشرفة تحت أشعة الشمس المحرقة ، وهى تناديه ، بأستمرار يكاد يكون ميكانيكياً :

ـ بابا ؟ ... بابا ؟ ...

وسرعان ما جاء الخادم كالمعتاد ، مرسلاً من المدير وطرق الباب ، وهو يقول .. إنهما سوف لن يلحقا بالقطار إذا لم يذهبا حالاً . وهتف هارلال من داخل الغرفة يقول :

ـ لا أستطيع الذهاب هذا الصباح ..

ـ فمتى تذهب اذن يا سيدى ؟؟

ـ سأخبرك فيما بعد .

ونزل الخادم نافذ الصبر ..

وفجأة تذكر هارلال الحلى التى تركها فينو . كان قد نسى كل شىء عنها تماماً ، وأحس بشىء من الارتياح أن تذكرها، فأخذها بحقيبتها ومعها رسالة فينو الى أبيه وغادر البيت . وقبل أن يصل الى قصر السيد أدهارلال ، سمع الفرقة الموسيقية تعزف احتفالاً بالزواج ، ومع ذلك فانه حين دخل أحس أن فى البيت شيئاً من الاضطراب والقلق ، وسرعان ما علم بوقوع حادث سرقة فى الليلة الماضية ، وأن الشكوك تتجه الى بعض الخدم .

وكان السيد أدهارلال يجلس على شرفة منزله العليا وقد احمر وجهه غيظاً ، بينما جلس راتيكانتا بالقرب منه يدخن شيشته كالمعتاد .

وقال هارلال ، للسيد أدهار :

ـ لدىّ ما ينبغى أن أقوله لك سراً ..

ولكن أدهار استشاط غضباً ، وصرخ فى وجهه قائلاً :

ـ « لا وقت لدىّ الآن .. » .

وكان قد خشى أن يكون هارلال ، قد جاء يقترض منه نقوداً ، أو يسأله مساعدة وعوناً .

وعلق راتيكانتا قائلاً إنه يسره ، أن يترك الغرفة إذا كان هارلال يشعر بعدم الارتياح الى عرض رجائه بحضوره .. ولكن أدهار انتهره وهو يأمره بالجلوس حيث هو .. وحينئذ لم يجد هارلال بدا من أن يقدم الحقيبة بما فيها .. وسأله أدهار عما فيها ففتحها له وأعطاه مافيها من الحلى .. وكم كانت دهشة هارلال ، حين قال السيد أدهار :

ـ « إنها لعملية مربحة تلك التى بدأتماها ـ أنت وتلميذك السابق .. لقد كنت متأكداً من أن المسروقات سوف تعرف لو عرضت للبيع ، وهكذا جئتنى بها لتطلب مكافأة » .

وقدم هارلال الرسالة التى كتبها فينو الى أبيه ، ولكن هذه لم تزد السيد أدهار إلا غضباً وتهيجاً ، فصرخ « مامعنى هذا كله ؟ .. سأستدعى البوليس .. ان ابنى لم يبلغ سن الرشد بعد .. وقد هربته أنت من البلاد ، وأراهن بحياتى أنك قد أقرضته بضع مئات من الروبيات وأخذت منه ايصالاً بثلاثة آلاف .. ولكنى لست ملزماً .. لست ملزماً بشىء من هذا .. ولدى قاصر .. قاصر .. » .

وأعترض هارلال ..

ـ « كلا ، لم أقرضه قلساً واحداً .. » .

ـ « وكيف أخذ المال اذن ؟ .. هل تقصد أن تقول إنه قد كسر خزانتك وسرق منها المبلغ .. » ووقف هارلال صامتاً ، بينما علق راتيكانتا متهكماً :

ـ « لا أصدق . أن هذا الشخص قد لمس بيده ، مجرد لمس ـ مبلغاً ضخماً كهذا طوال حياته كلها .. » .

وحين غادر هارلال ذلك القصر بدا له ، كأنه قد تخطى كل احتمالات الخوف أو القلق . وأحس كأن عقله يرفض أن يتحرك .. وما كاد يدخل زقاق بيته ، حتى رأى أمام الباب عربة تنتظره وظن لأول وهلة أنها عربة فينو .. فقد كان من المستحيل على هذا البائس ، أن يصدق أن الكارثة التى حلت به ، كانت خالية من كل أمل فى الخلاص .

وأسرع الى العربة ، ولكنه وجد فيها مساعداً انكليزياً من الشركة . ونزل الرجل من العربة عند رؤية هارلال وأمسك به من رسغه وسأله :

ـ « لماذا لم تسافر بالقطار هذا الصباح ؟ » .

وأجاب هارلال :

ـ « لأنى اكتشفت أن ثلاثة آلاف روبية قد فقدت » .
وسأله الرجل .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟
ولكن هارلال لم يحر جواباً .
وإذ رأى الرجل ارتباكه ، وحيرته قال له :
ـ دعنا نصعد الى غرفتك ، ونرى أين تحفظ نقودك ؟ ..
وصعدا الى الغرفة ، وعدا النقود معاً وبحثا عن المبلغ الناقص فى كل مكان ، ولكن دون جدوى بالطبع .
وحين رأت أم هارلال عملية التفتيش لم تستطع أن تحتفظ بهدوئها ، فلم تبال بأن تقابل الغريب وأن تسأل ابنها عما وقع . وقال لها الرجل : إن شيئاً من المال قد سرق فصاحت مبهوتة تقول :
ـ « سرق ؟ .. لماذا ؟ .. كيف يمكن أن يسرق ؟ . من الذى يقدم على مثل هذه الفعلة » .
ولكن هارلال منعها عن الكلام .
وجمع الرجل الإنجليزى ماتبقى من المال ، وطلب من هارلال أن يصحبه الى المدير .
ووقفت الأم تعترض الطريق وهى تقول :
ـ « سيدى .. الى أين تذهب بولدى ؟ .. لقد بذلت كل ما وسعنى .. بل لقد جعت وتعريت ، وشقيت ، لينشأ نشأة صالحة ، وليكون رجلاً شريفاً .. كلا .. ولدى لايمس مالاً ليس له على الاطلاق .. » .
ولكن ، إذ كان الرجل الإنجليزى يجهل اللغة البنغالية التى كانت تتحدث بها الأم ، فقد اكتفى بأن يردد « آتشا .. آتشا » .. وحاول هارلال أن يطمئنها ، وأن يهدىء من روعها ، فقال لها إنه سيوضح الأمر كله للمدير وسيعود إليها حالاً .. وإذ كانت أمه قد شغلها وأثقل قلبها هما ، أن أبنها لم يأكل شيئاً فى الصباح فقد توسلت اليه ، أن يتريث لحظة ، ليتناول فطورا خفيفاً ، ولكن هارلال ، دخل العربة متجاهلاً توسلاتها ، بينما تهاوت هى على الأرض ، وقد عصر قلبها الألم ، وزلزلتها الكارثة ، وعصف بصبرها الخطر المتوقع المجهول ..

وحين مثل هارلال بين يدي المدير ، سأله هذا قائلاً :

- « قل لى الحقيقة كاملة .. ما الذى حدث ؟ .. » .

ولكن كل ما أستطاع أن يجيب به هارلال هو أنه لم يأخذ من النقود شيئاً على الاطلاق .

وقال المدير :

- « انى أصدق ذلك وأؤمن به ، ولكن لاشك فى أنك تعرف من الذى أخذها ... » ولاذ هارلال بالصمت ، وعيناه الى الأرض .

وقال المدير :

- لابد أن شخصاً ما ، قد أخذها بعلمك ورضاك .

وهنا أجاب هارلال قائلاً :

- « لا سبيل الى أن يأخذها أحد بعلمى ورضاى إلا إذا أخذ حياتى قبلها .. » .

وقال المدير :

- اسمع يا هارلال .. لقد وثقت بك ثقة تامة ، فلم آخذ منك ضماناً من أى نوع .. وقد عهدت إليك بعمل ذى مسؤولية كبيرة .. وقد كان كل من فى المكتب يلومنى على ذلك ويستهجن تصرفى .. والثلاثة آلاف روبية مبلغ بسيط ولكن مايجره ضياعها علىّ من خزى وهزيمة هو ما آبه له وأهتم به .. وسوف أفعل معك شيئاً واحدا .. سأعطيك يوما كاملا لتعيد إلىَّ النقود .. فاذا أعدتها فسوف لن أقول شيئا .. وسوف أبقيك فى عملك ... » .

وكانت الساعة الحادية عشرة حين غادر هارلال المكتب برأس منحنية وترك زملاءه فى العمل ، متهللين فرحاً وابتهاجاً بالفضيحة التى انتهى إليها أمره .

ومشى وهو يردد ..

- ماذا أستطيع أن أفعل ؟ .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟

وكانت حرارة الشمس تتفجر ، وهو يمشى زائغ البصر ، مسلوب الرشد ، لايلوى على شىء .. وقف ذهنه كلياً عن التفكير ، ولكنه ظل يمشى ميكانيكياً .

- وأصبحت مدينة كلكتا التى تجود بالظل والمأوى على ألوف وألوف من البشر ، كأنها فخ من الصلب ، لم يعد يستطيع أن يجد فيه سبيلاً .. أى سبيل للخلاص .. جميع الناس ..

كل هذه الجموع الضخمة من البشر تتآمر عليه ، وتحاصره لتلقى القبض عليه هو .. هو المخلوق النكرة الذى لايعرفه إنسان . ليس بينهم من يحقد عليه أو يكن له عداء أو بغضاء من أى نوع . ومع ذلك فالجميع أعداؤه وخصومه .

ومشى وجماهير الناس تمر وتحتك به .. موظفون من مختلف المكاتب والدوائر ، يتناولون غذاءهم على قارعة الطريق على أطباق من أوراق الشجر .. وعابر سبيل ، مضطجع تحت ظلال شجرة ويده تحت رأسه وأحدى ساقيه فوق الأخرى .. ونساء من الريف تجمعن على عربة مكشوفة فى طريقهن الى المعبد ، ثم خادم فى أحد المكاتب يتقدم اليه بغلاف فى يده ، يسأله عن العنوان الذى كتب عليه ..

وانقضى وقت الظهيرة وهو يمشى الى أن بدأت المكاتب ودوائر الأعمال تغلق أبوابها واحداً بعد الآخر ، مؤذنة بانتهاء اليوم .. وانطلقت العربات فى كل اتجاه بركابها تنقلهم الى منازلهم . موظفون تراصوا وترازموا على مقاعد الترام ، يتطلعون الى اعلانات المسارح وهم يعودون الى بيوتهم .. وطاف بذهنه ، وهو يرى كل ماتقع عليه عيناه أنه لم يعد منذ الآن وحده فى هذه الحشود من البشر .. لم يبق له عمل يشغله طوال النهار ، وسوف لن يرى مساء سعيداً ينطلق فيه من العمل الى الراحة والاستجمام .. وليست به بعد الآن من حاجة الى أن يسرع ليلحق بالترام الذى يوصله الى البيت . بدا له أن جميع عمال المدينة الضخمة ، بمبانيها ، والخيل والعربات فيها وحركة المواصلات الدائمة فى شوارعها ، كأنها حقيقة رهيبة تكبر وتتضخم ثم تستحيل أحياناً ، الى وهم وظلام وهباء .. ولم يكن هارلال قد أكل لقمة ، أو نعم براحة لحظة ، أو استظل بأى ظل من وهج الشمس وأشعتها المحرقة طوال اليوم .

وأخذت مصابيح الشارع تضىء واحداً بعد الآخر ، الى أن بدا له ، أن ظلمات غامرة ، كأنها شرذمة من الأبالسة ، تربض محملقة ترقب كل حركة من حركات ضحيتها .. وبلغ الاعياء به حداً لم يعد يستطيع معه أن يعرف كم مضى من الليل . وكانت عروق رأسه تنبض حتى لقد أحس كأنها ستنفجر . وخلال موجة الألم الجارفة يعقبها ذهول القلب الجريح ، وخمود النفس المتداعية ، كانت تعاوده صورة واحدة ، مرة بعد أخرى بين الحشود التى لاتحصى فى تلك المدينة الكبيرة .. صورة شخص واحد تظهر

بين رؤى ذهنه المضطرب وأسم مخلوق واحد وجد وحده طريقة الى حنجرته الجافة المحترقة .. « أمى » .

وقال لنفسه : فى أعماق الليل ، حين لايبقى أحد ساهراً ليلقى القبض علىّ .. علىّ أنا ، أقل الناس شأناً ، سأزحف الى أحضان أمى .. وأستسلم للنوم .. وعسى أن لا أستيقظ بعد ذلك الى الأبد ..

وكانت أحدى مشاكل هارلال ، هى خوفه من أن يضايقه أحد ضباط البوليس على مشهد من والدته ، ويحول ذلك بينه وبين العودة الى منزله .. وحين أصبح استمراره فى المشى متعذراً لشدة مايكابد من الاعياء والرهق ، استوقف عربة سأله سائقها عن الجهة التى يريد الذهاب اليها فأجابه :

ـ « ليس الى جهة معينة .. انى أريد أن تتجول بى عبر هذا الميدان لاستنشق قليلاً من الهواء » وارتبك الرجل بادىء الأمر ، وكاد أن يستأنف سيره غير عابىء به ، لولا أن هارلال وضع فى يده روبية عربوناً على الدفع .. وعندئذ مشى وظل يعبر به الميدان من جانب الى آخر ويجوس به طرقاً مختلفة ، ثم يعود الى الميدان مرة أخرى وهكذا دون هدف أو مستقر .

وألقى هارلال برأسه المحتقن على جانب النافذة المفتوحة من العربة . وأغمض عينيه .. وتلاشى الألم تدريجياً وفى بطء وغمر قلبه سلام عميق وعريض .. وأحس كأن دعة وأمناً صادرين من قوة عليا ، تحتضنانه وتحيطان به من جميع الجهات .. كلا لم يكن حقيقة هذا اليأس الذى كاد يجرفه اليوم الى ساحة العدم المطلق . كلا ليس ذلك حقيقة اطلاقاً .. ليس إلا وهماً باطلاً .. وكل ماعاناه لم يكن إلا مخاوف لا أساس لها ، صورها له خياله المريض وذهنه المحموم .. وهاهو سبيل النجاة يمتد فى آفاق السماء اللا متناهية .. وها هو السلام والأمن يمدان ظلالها الوارفة ، على جميع أرجاء الكون .. كلا ، ولا وجود اطلاقاً لملك أو امبراطور فى هذا العالم يستطيع أن يحتفظ فى قبضة يده بهذا اللا شىء .. هذا العالم .. الذى يسمى هارلال .

وفى السماء .. هذه السماء التى تحيط بقلبه من جميع الجهات أحس بوجود أمه .. تلك المرأة الفقيرة البائسة .. بدا له أنها تكبر ثم تكبر ، حتى لقد ملأت جوانب الظلام

السرمدى .. جميع الطرق والمنعطفات والمبانى ، والحوانيت فى كلكتا قد تلفعت بها .. لم يبق أمامه سواها .. وبوجودها تلاشت جميع آلامه ، وتوارت جميع أفكاره ومخاوفه .. وانطوى ضميره ووجدانه .. ثم بدا ، كأن فقاعة ممتلئة ببخار ساخن من الألم قد انفجرت .. والآن .. لم يبق هناك لا نور ولا ظلام .. وأعلنت ساعة المعبد الواحدة بعد منتصف الليل . وهتف السائق وقد نفد صبره .

ـ سيدى .. حصانى لم يعد قادراً على المشى .. أين تريد أن تذهب ؟

ولم يسمع جواباً .

ونزل السائق عن مقعده ، وهز هارلال وسأله مرة أخرى ..

ـ « أين تريد أن تذهب ياسيدى ؟ .. » .

ولم يسمع جواباً .

وكان هذا هو السؤال ، الذى لم يلق جواباً من هارلال الى الأبد ..

* * *





لا تستطيع ابنتى ـ فى الخامسة من عمرها ـ أن تعيش دون كلام ... ولعلّها لم تضع قط دقيقة من حياتها دون أن تقول شيئا ... وكثيرا ما أهاج ذلك والدتها وتمنت أن تحد من هذرها ... وهذا على العكس منى تماماً ، فقد كان مما لا يتفق أن تلتزم « مينى » الصمت ، وأن أحتمل أنا ذلك طويلا . ولهذا فقد كان حديثى معها متواصلاً دائم المرح . وعلى سبيل المثال ، فقد حدث ذات صباح فى منتصف الفصل السابع عشر من قصتى الجديدة . أن تسللت صغيرتى « مينى » الى الغرفة ، ثم قالت وهى تضع يدها فى يدى : « هل تعلم يا أبى ، أن البواب ، رام دايا ، ينادى الغراب ، الذى لا يعرف شيئا .. أليس كذلك ؟ »

وقبل أن أشرح لها الفرق بين لغة وأخرى فى هذا العالم ، أقلعت مسرعة الى موضوع آخر ، اذ قالت : « ما رأيك يا أبى .. أن بولا يقول : إن فى السحاب فيلاً ، ينفث الماء من خرطومه ، وذلك هو ما يحدث حين تمطرنا السماء .. » .

ولا أكاد أفكر فى جواب على سؤالها حتى أسمعها تقول : « قل لى يا أبى .. ما هى قرابة أمى لك ؟؟ » .

ووجدتنى مضطرا ان اقول لها جاداً : « مينى ... أذهبى والعبى مع بولا ، فإنى مشغول .. » وكانت نافذة غرفتى تطل على الطريق ... وجلست صغيرتى عند قدمى ، بالقرب من مكتبى ، وأخذت تلعب وتربت ركبتيها فى هدوء ... واذ استغرق كل اهتمامى ، أن بطل قصتى الجديدة فى الفصل السابع عشر ، قد أخذ البطلة بين ذراعيه ، وشرع يحاول الهرب معها من نافذة الدور الثالث فى القلعة ، فوجئت بصغيرتى تترك اللعب ، وتجرى الى النافذة ، وهى تصيح : « العم كابلى ... العم كابلى ... » والتفت استطلع ،

فوجدت فعلا ، العم كابلى فى الشارع يسير فى بطء وقد ارتدى ثيابة الأفغانية ، وعمامته طويلة الذيول ، وعلى ظهره خُرج ، وفى يده علب ملأى بالعنب .

ولا يسعنى أن أتحدث عما كان يخالج شعور مينى ، وهى ترى هذا الرجل ، ولكنى أذكر أنها شرعت ترفع صوتها بندائه ، وقلت لنفسى : بلى ... سيدخل حالا ، وعندئذ ، فقل السلام على الفصل السابع عشر .

والتفت العم كابلى ، فى هذه اللحظة بالذات ، رافعا نظره الى مينى .. ولكنها ما كادت تراه حتى بدا عليها الرعب ، وغادرت الغرفة مسرعة الى أمها ، اذ كان مما رسخ فى ذهنها ، أن فى الخُرج الذى يحمله العم كابلى على ظهره ، طفلين أو ثلاثة أطفال آخرين مثلها .. وكان الرجل عندئذ قد دخل من الباب الكبير وحيانى بابتسامة .

وهكذا أصبح موقف بطلى القصة فى الفصل السابع عشر قلقا ، إذ كان عليَّ أن أتوقف عن الكتابة ، وأن أشترى منه شيئا ما مادامت مينى هى التى دعته الى الدخول . واشتريت من الرجل شيئا مما يحمل ، وشرعنا نتحدث عن الروس والانجليز ، وعن سياسة الحدود ...

وعندما أخذ يتأهب للخروج قال متسائلا : وأين البنت الصغيرة يا سيدى ؟

وخطر لى أن أخلص الصغيرة من مخاوفها الموهومة فجعلتهم يجيئوننى بها .. وحين جاءت وقفت بجانب مقعدى وأخذت تتطلع الى العم كابلى والى حقيبته ، فنفحها بشىء من اللوز والبندق والزبيب ، ولكنها لم تأخذ منه شيئا وتضامَّت ملتصقة بى بكل ما فى قلبها من مخاوف وشكوك . وكان ذلك أول لقاء بينهما ..

وبعد بضعة أيام ، أدهشنى ان أرى مينى جالسة على مقعد بالباب ، تتحدث وتضحك مع العم كابلى الذى قبع على الارض تحت قدميها الصغيرتين ، وقد بدا أن مينى لم تجد فى حياتها مستمعا يصغى الى أحاديثها وهذارها فى صبر مثل العم كابلى ... وكان طرف « السارى » الذى ترتديه معقودا على شىء من الزبيب الذى أهداه لها .

وقلت للرجل : لماذا أعطيتها كل هذا ؟؟ ثم مددت يدى اليه بقطعة من النقود ، أخذها ووضعها فى جيبه ، ولكن عندما رجعت الى المنزل بعد ساعة وجدت أن قطعة النقد

الصغيرة ، قد أجدت ضعف ما تساويه ، فقد كانت القطعة بكاملها فى يد الصغيرة ، وكانت أمها تعنفها قائلة : قولى .. من أين لك هذه النقود ؟؟

وقالت الصغيرة فى مرح : أعطانيها ، العم كابلى ...

وصاحت أمها مندهشة : العم كابلى ؟؟ ولكن كيف أستطعت أن تأخذيها منه ؟؟

وكان من حسن حظ الصغيرة أن أدخل فى هذه اللحظة ، فاجنبها المصير الذى كان يمكن أن تنتهى اليه مع أمها ، حيث تدخلت لأتولى بنفسى ، « التحقيق » .

ولم تكن تلك هى المرة الاولى او الثانية التى رأيتهما يتقابلان فيها ، اذ استطاع العم كابلى أن يقضى على مخاوف مينى بهداياه من البندق واللوز والمشمش ، وأن يصبح الإثنان صديقين حميمين . فقد كانت لهما دعاباتهما المرحة التى تجعلهما يستغرقان فى الضحك .. واعتادت مينى أن تجلس أمامه فى ملابسها الدقيقة ، لتتأمل الإطار الضخم الذى يستقر فيه بملابسه الفضفاضة ، وقامته الفارعة .. وأصبح من المألوف ، أن تطفر مينى حين تراه قائلة . وقد ماج فى وجهها الضحك : يا عم كابلى .. يا عم كابلى ... ماذا فى خُرجك يا عم كابلى ؟؟؟

فيجيبها العملاق فى لهجة سكان الجبال قائلا : فيل ... فى خُرجى فيل يا مينى ..

وقد لا يبدو فى الرد ما يضحك ، ولكن ما أكثر ما كانا يضحكان معا لأمثال هذه الدعابات . وما أكثر ما كان يحملنى على التأمل والاعجاب أن أسمع هذا الحوار يدور بين طفلة صغيرة ورجل عملاق ..

ويقطع العم كابلى تأملاتى حين يسأل الصغيرة بدوره قائلا : أيتها الصغيرة ... قولى لى .. متى ستذهبين الى بيت حميك ؟؟

ولعل كل فتاة بنغالية صغيرة قد سمعت من ذويها ، منذ زمن بعيد عن بيت حميها ، ولكن مينى لم تسمع منا عن هذا البيت شيئا حتى اليوم ، ولهذا فقد تحار فى الرد ، إلاّ انها لا تريد أن تظهر جهلها فتجيب فى لباقة ـ ولكن ، قل لى .. هل أنت ذاهب الى هناك ؟

ويعرف الناس من طبقة كابلى أن بيت الحم يحمل معنى مزدوجا ، إذ يرمز أيضا الى (السجن) أو المكان الذى يجد فيه المرء غاية الاهتمام والعناية دون تكاليف أو نفقات ... ويصرف العم كابلى سؤال مينى الى هذا المعنى ، فيجيب وقد جمع قبضته يهدد شرطيا لا

يراه سواه قائلا :ـ كلا ... بل سأجلده ... سأجلد حميي .. سأجلده .. هل تفهمين ....

وتمشى بذهن مينى صورة القريب سيىء الحظ الذى يضرب به العم كابلى ، فتطفر ضاحكة ، ويشاركها هو ، فيضحك ملء صدره وشدقيه ..

وكانت هذه أصباح أيام الخريف ، وهى نفس الأوقات التى كان يحلو للملوك فيما مضى من سالف الازمان ، أن يخرجوا فيها للغزو ... وهكذا أنا ... فقد كان يحلولى ـ دون أن أبرح ركنى الصغير فى كلكتا ـ أن أطلق لخيالى العنان ، سابحا حول العالم كله .. اذ عندما تذكر أية بلاد أخرى ، ينطلق قلبى اليها .. وعندما أرى زائراً أجنبيا فى الشارع ، أشرع فى حوك شبكة من الاحلام ... فارى الجبال والوديان ، والسهول والوهاد ، ثم الغابات الكثيفة الملتفة فى بلده البعيد ، وكوخه الصغير فى وسطها ، ثم الحياة الحرة الطليقة التى يحياها ... ولعل مشاهد السفر تتزاحم ، ثم يأخذ بعضها برقاب بعض ، وهى تمر فى مخيلتى ، أشد ما تكون حيوية وانتعاشا ، لان وجودى يشبه حياة النبات ، الذى تنقض عليه الدعوة الى السفر والانتقال كالصاعقة فيها زلزاله المميت .

وهكذا كان ، محضر العم كابلى ينطلق بى توا الى السفوح الجليدية من جبال الافغان بقممها الذاهبة فى أعماق السماء ، ومنعرجاتها الضيقة التى تلتوى هنا وهناك ، فى مرتفعاتها الشامخة ، حيث أرى قوافل الإبل ، وهى تسير مثقلة بأحمالها من السلع والبضائع ، وحولها جماعة من الرجال ، فى عمائمهم الملونة ، وقد حمل بعضهم البنادق ، وحمل آخرون الحراب ، فى طريقهم المنحدر الى السهول .

ويجمح بى خيالى ، وتتزاحم أمامى المشاهد والرؤى ... ولكن أم « مينى » تتدخل فى هذه اللحظة بالذات ، متوسلة إلىَّ أن أحذر من ذلك الرجل .

ومما آسف له أن أم « مينى » كثيرة المخاوف ، فهى لا تكاد تسمع ضجة فى الشارع ، أو ترى أناسا يقصدون منزلنا حتى يقفز الى ذهنها أنهم اللصوص أو السكارى أو الافاعى ، أو النمور أو الملاريا أو الصراصير أو الديدان .

وعلى الرغم من التجارب التى مرت بها طوال السنين الماضية ، فإنها لا تستطيع أن تتغلب على مخاوفها ، ولذلك فقد كان من المتعذر أن تطمئن الى العم كابلى ... كانت تغمرها المخاوف والشكوك . وقد اعتادت أن ترجونى كلما حضر أن آخذ حذرى منه ، وأن

لا أغفل عنه ... فاذا حدث أن حاولت أن أضحك لازيل شيئا من مخاوفها وأوهامها ، فإنها لا تلبث أن تسألني ـ « ألم يحدث قط أن اختطفوا الاطفال ؟؟ أليس صحيحاً ان الرق لا يزال مألوفاً فى كابل ؟؟ فلماذا يبدو لك غريبا ألاَّ يستطيع هذا الرجل أن يختطف مينى ويذهب بها ؟ وأجد نفسى أقول لها : « ليس ذلك مستحيلا حقا ، ولكنه بعيد الإحتمال ... » .

وهذا يكفى فى الواقع لازالة مخاوفها ، ومع ذلك فقد بدا لى أنه ليس صحيحا ان نمنع الرجل من دخول منزلنا لمجرد ما تعلنه زوجتى من مخاوف وشكوك ...

وكان العم كابلى ، قد اعتاد ان يعود الى بلاده مرة كل عام ... وعند ما يقترب موعد رحلته ، تكثر مشاغله ، بحيث يُرى متنقلا من هذا البيت الى ذلك ، يجمع ما بقى له لدى القوم من نقود ، ومع ذلك فقد كان يستطيع ان يجد وقتا يحضر فيه لرؤية صديقته الصغيرة « مينى » ... حتى لقد كان من الممكن ان يبدو لاى غريب ، أن هناك نوعا من التآمر على أمر ما ، بين الاثنين . اذ عندما لا يستطيع أن يجيء فى الصباح كان لا بد أن يُرى الى جانبها ، وتحت قدميها الصغيرتين فى المساء ... وحتى بالنسبة الىَّ فقد كان الأمر يحملني على الاستغراب اذ أُفاجيء هذا الرجل الفارع الطول فى ملابسه الفضفاضة قابعا بخرجه فى ركن الغرفة المظلمة ، ولكن ما تكاد تدخل مينى ، وعلى شفتيها « العم كابلى ... العم كابلى .. » ويستغرق الصديقان فى ضحكاتهما المعتادة ، وفكاهاتهما المألوفة ، حتى يفرغ روعى وأشعر بالاطمئنان .

وفى ذات صباح ، قبيل اليوم الذى اعتزم فيه الكابلى سفره ، كنت أصحح بعض الأصول فى مكتبى ، وكان الجو قارساً موحشاً ، واشعة الشمس تتسلل الى قدمى من خلال النافذة ، فتبعث فيهما ذلك الدفء اللذيذ . وكانت الساعة تقارب الثامنة حين طرق سمعى فجأة زجرة فى الشارع ... وما كدت ألقى نظرة حتى رأيت العم كابلى يُسحب مقبوضا عليه بين رجلين من رجال البوليس ، وخلفهم شرذمة من الاطفال يستثيرهم الفضول . وكانت ثيابة ملطخة ببقع من الدم ، وقد حمل رجلا البوليس سكينا ... فأسرعت خارجا استوقف واستطلع الخبر . واستطعت أن أفهم من هذا وذاك ، أن أحد الجيران قد أنكر العم كابلى فى قيمة شيء أشتراه منه ، واشتد النزاع بين الرجلين ، فما كان

من الكابلى الا أن طعنه بالسكين !!! وكان الكابلى وقد ثارت ثائرته يزمجر ويقذف خصمه بأقبح الشتائم والنعوت ، حينما ظهرت مينى فى الشرفة ، ورفعت عقيرتها تناديه : « يا عم كابلى .. يا عم كابلى ..» فأشرق وجه الرجل ، وهو يلتفت اليها ، ولم يكن يحمل خرجه فى هذه المرة ، فلا سبيل الى أن يحدثها عن الفيل الذى فيه ، ولكنها سرعان ما انتقلت الى سؤالها الثانى المألوف :ـ « هل ذاهب أنت الى بيت حميك يا عم كابلى ؟؟ » .

وضحك العم كابلى ملء شدقيه وقال :ـ « هو ذاك بالضبط ما أنا ذاهب اليه يا صغيرتى » . ثم اذ رأى أن جوابه لم يمتعها كثيرا ، رفع يديه وقال :ـ « آه ... لكم أتمنى أن أجلد ذلك الحم العجوز ولكن يديَّ مكبلتان كما ترين ؟؟ » .

وحُكم عَلى عبد الرحمن ـ وهذا اسمه ـ بالسجن لعدة سنوات ، بتهمة الشروع فى القتل ..

ومرت الايام ... ونُسى الرجل ، وسارت حياتنا المألوفة فى مدارها المألوف ، وندر أن طرأت على أذهاننا ذكرى الرجل الجبلى الطليق ، الذى قُدِّر له أن يقضى من حياته سنوات طويلة وراء جدران السجن ... وحتى مينى طيبة القلب ، يؤسفنى أن أقول إنها قد نسيت صديقها العجوز . فقد ملأ حياتها رفاق آخرون ، وعندما أخذت تترعرع وتنهد ، أعتادت أن تقضى أكثر أوقاتها مع أترابها من الفتيات ، حتى لقد أصبح من النادر ان تدخل الى غرفتى ـ أنا والدها ـ أو أن أجد فرصة للتحدث اليها .

ومرت أعوام ... وجاء الخريف ، وكنا قد أخذنا اهبتنا لزواج مينى الذى قررنا أن يتم فى عطلة أعياد (اليوجا) .. وحين يعود « دورجا » الى « كيلاس » يذهب المخلوق الذى يضىء حياتنا ، الى بيت الزوج ، تاركا بيتنا غارقا فى الظلام ....

وكان الصباح مشرقا إثر ليلة مطيرة ، فبدا الهواء لذلك كأنما قد استحم ، وأشعة الشمس كأنها تتدفق من مسبك للذهب النقى ، وقد بلغ من تألقها أن جعلت جدران منازلنا فى كلكتا تتلألأ وتضىء ... وكانت مزامير الزواج تصدح منذ الفجر ... وكان قلبى يخفق مع كل نغمة ، وبدا لى أن نغمة معينة تزيد فى الألم الذى أخذت أشعر به كلما أقترب موعد الفراق ...

بلى ... فقد كانت صغيرتى « مينى » ستتزوج فى تلك الليلة بالذات ...

ومنذ الصباح الباكر ، كان الصخب الذى يصحب هذه المناسبات ، قد اجتاح البيت ، اذ انتصبت ، فى فناء البيت ، تلك الاريكة الكبيرة التى يقيمونها على أعمدة من الخيزران ، والنجفات الكبيرة برنين قطعها البلورية تنتظر أن تعلق فى أماكنها من الغرف والأبهاء والشرفات ... ومالا نهاية له من التوتر والانفعال والضجيج وحركة الأقدام المتلاحقة السريعة ...

وكنت جالسا فى غرفتى أتأمل قوائم الحساب عندما دخل الغرفة إنسان حيانى باحترام ، ثم وقف أمامى ... كان هو ... عبد الرحمن الكابلى ... لم أستطع أن أعرفه لأول وهلة .. إذ لم يكن يحمل خرجا ... وكان رأسه حليقا ، وقد ذهب ما كان له من حيوية ونشاط وانطلاق .. ولكنه ابتسم ... واستطعت أن أتذكره ... وسألته :ـ « متى جئت يا عبد الرحمن ؟ » .

وأجاب :ـ « قد أطلق سراحى البارحة ... » .

وكان وقع كلماته قاسياً على سمعى ... اذ لم يسبق لى قط أن تحدثت الى رجل شرع فى قتل أخيه الإنسان ، وغاص قلبى حين جال بذهنى ، وبدا لى كأن هذا اليوم كان يمكن ان يكون أطيب فالاً لو أن العم كابلى لم يحضر ...

وقلت له ـ لدينا اليوم حفلة ... ولدى عمل كثير .... فلعلك تستطيع أن تجىء فى يوم آخر .

وسرعان ما أستدار ليذهب ... ولكنه قبل أن يصل الى الباب توقف ثم قال :ـ أليس من الممكن أن أرى الصغيرة لحظات يا سيدى ؟

لقد كان يعتقد أن مينى لا تزال هى الصغيرة التى يعرفها ، ولعله قد تخيلها تهرع اليه كما أعتادت أن تفعل حين يجىء وعلى شفتيها نداؤه « العم كابلى ... العم كابلى ... » . كما تخيل أيضا أن يحادثها وأن يضحكا معا . كما كانا يفعلان منذ زمن بعيد ... ولا شك فى أنه قد حمل معه شيئا من الزبيب والعنب واللوز ، وقد لفه بعناية فى ورقة خلال هذه السنين التى قضاها وراء جدران السجن ...

وعدت أقول :ـ « لدينا حفلة فى البيت ... ولا يتاح لك أن ترى أحداً اليوم ..... » .

وشحب وجهه ، ورفع عينيه إلىَّ بنظرة شاردة ثم قال :ــ « عم صباحا يا سيدى .... » وخرج ...

وأحسست بشيء من الأسى ... ووددت أن أستوقفه ، ولكنه سرعان ما عاد إلىَّ ، واقترب منى قليلا ومد إلىَّ هداياه قائلا :ــ لقد جئت بهذه الاشياء القليلة للصغيرة يا سيدى ، فعسى أن تتكرم بايصالها اليها .

وأخذت منه ما أعطانيه ، وهمست أن أدفع له الثمن ، ولكنه أمسك بيدى قائلا :ــ « انك لكريم جداً يا سيدى ... فلا تعطينى نقودا ... يكفينى أن تذكرنى ... أن لى ابنة صغيرة فى بلادى ... أنى أتذكرها وأجىء بهذه الهدايا الصغيرة لابنتك ، لمجرد الذكرى ... » .

وأخرج من جيبه، وهو يتحدث ، قطعه صغيرة ممزقة من الورق ... نشرها بكثير من العناية والاهتمام ... ثم أخذ يمسح طياتها الكثيرة بيديه على المكتب ... كان كل ما فيها هو بصمة كف صغيرة ... كلا لم تكن صورة ، ولا رسما ... كانت مجرد كف صغيرة لطخت بالحبر ثم بصم بها على الورق ... كان يحمل هذه اللمسة من يد إبنته الصغيرة فى جيب يلامس قلبه دائما .

وأمتلأت عيناى بالدموع .. فقد نسيت تماما أنه كان مجرد بائع فاكهة فقير من كابل ... بينما أنا ... ولكن من أنا ؟؟؟

وذكرتنى بصمة كف الصغيرة فى بلادها البعيدة بين الجبال الشاهقة بصغيرتى « مينى » .

أسرعت أناديها من الجناح الداخلى للمنزل ... قامت عدة صعوبات فى الواقع ، ولكنى ذللتها جميعا ... وجاءت مينى ... تخطر فى ثوبها القرمزى ،وقد دهنت جبهتها بغالية الصندل العبق ، وتبرجت فى حليها وزينتها عروساً شابة رائعة البهاء ، ووقفت مينى بأدب أمامى .. وبدا العم كابلى مندهشا لمرآها . وارتج عليه فلم يستطع أن يحيى صداقتها القديمة . وأخيرا استطاع أن يبتسم ويقول :ــ « أيتها الصغيرة ... هل أنت ذاهبة الى بيت حميك ؟؟ » .

وكانت مينى تفهم الآن معنى « بيت الحم » فلم تستطع أن تجيب كما كانت تفعل فيما مضى ... وتوردت وجنتاها خجلا من السؤال ، ووقفت أمامه مطرقة بوجهها الى الارض .

وتذكرت اليوم الذى تقابل فيه العم كابلى وابنتى « مينى » لاول مرة ، فأحسست بشيء من الأسى ... وعندما غادرت مينى الغرفة ، تنهد عبد الرحمن ، وجلس على الارض ، فقد تذكر أن ابنته لا بد وأنها قد كبرت خلال غيبته الطويلة عنها ، وأن عليه أن يعقد معها صداقة من جديد أيضا ، وليس من شك فى أنه لن يجدها كما تركها ... ثم ... ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها خلال ثمانى سنوات طوال ....

وصدحت موسيقى الزواج .... وأحتضنتنا أشعة شمس الخريف ، ولكن عبد الرحمن الكابلى جلس حيث هو ، يتأمل بخياله تلك السفوح الجديبة من جبال الأفغان ...

وأخرجت ورقة نقد دفعتها اليه وأنا أقول :ـ « أذهب الى ابنتك يا عبد الرحمن ... وأرجو أن يكون فى سعادة لقائك بها ما يسعد حظ ابنتى هنا » .

وكان علىَّ بعد أن دفعت هذه المنحة له ، أن أختصر بعض زوائد حفلة الزواج ، اذ لم أستطع أن أضىء الليلة بثريات الكهرباء ، كما لم استطع أن أجىء بفرقة الموسيقى العسكرية لتعزف فى الفناء الكبير ... وقد أحس نساء المنزل بالكمد والضيق دون شك ، ولكن الامر عندى كان يختلف تماما ... فقد كانت حفلة زفاف ابنتى « مينى » أشد ما تكون تلألؤاً وبهاء ، لان أبا فى بلاد نائية ، سوف يستطيع أن يرى ابنته بعد غياب طويل ....

* * *



مأمور البريد

تسلم مأمور البريد عمله فى قرية أليار أولا ، ومع ان القرية كانت صغيرة فقد كان بالقرب منها مصنع للنيل يملكه رجل إنجليزى وفق فى ان يحمل المسؤولين على تأسيس مكتب للبريد .

وكان مأمور البريد الذى تسلم عمله فى هذه القرية من كلكتا ، يشعر كأنه سمكة خارجة من الماء فى هذه القرية المتواضعة . وكان مكتبه والغرفة التى يسكنها فيما يشبه مخزنا مظلما لا يبعد كثيرا عن بحيرة ماء خضراء تحيط بها من جميع جهاتها الأشجار والنباتات الكثيفة .

وكان العمال المستخدمون فى مصنع النيل مشغولين دائما ، كما كانوا من طبقة يصعب إتخاذ الرفاق منها بالنسبة لرجل محترم . هذا الى ان المواطن من كلكتا يكون فى الغالب أقل قدرة على توشيح العلاقة بينه وبين الآخرين ، اذ يكون فى محضر من لا يعرفه ، اما متغطرسا مزهواً بنفسه ، وأما قلقا مرتبكا . على اية حال فان مأمور البريد كان فى هذه القرية قليل المعارف والرفاق كما كان قليل العمل ايضا .

وكان فى بعض الأحيان يحاول كتابة أبيات من الشعر ، اذ كانت حركة أوراق الشجر والسحب المنتشرة فى السماء كافية لأن تملأ الحياة من حوله بالمتعة والفرح ، أو أن هذا ما بدا له موضوعا للشعر الذى يكتبه بين حين وحين . ولكنه كان يتمنى فى اعماق نفسه لو ان جنياً من أبطال ألف ليلة وليلة ، يخرج فى ليلة من الليالى فيكنس الأشجار واوراقها وحتى ظلالها ، ليضع مكانها طريقا معبدا حتى ولو اخفى السحب او حجبها عن الأنظار بصف من العمارات الشاهقة .

وكان راتب مأمور البريد محدودا ضئيلا ، ولذلك فقد كان عليه ، ان يطهو وجبات طعامه التى اعتاد ان تشاركه فيها « راتان »، وهى بنت يتيمة من بنات القرية تؤدى له بعض الخدمات البسيطة .

وعندما يأتى المساء ، ويأخذ الدخان فى التجمع ، متصاعداً من اكواخ القرية ، ويتعالى صداح الطير وتغريده من كل شجرة ، وحين ترتفع أصوات المتسولين باغانيهم فى المكان الذى يجتمعون فيه كل مساء ... وعندما يحس اى شاعر ـ يحاول ان يرقب اهتزاز أوراق الشجر فى نبات الخيزران ـ برعشة تسرى فى جوانحه وتهز مشاعره ، فتكاد شفتاه تهمسان بالشعر .. فان مأمور البريد عندئذ يشعل مصباحه ويهتف مناديا : راتان .. راتان .

وتجلس راتان عند الباب تنتظر هذا النداء ، وبدلا من ان تمثل بين يديه فى الحال فإنها تجيب قائلة :ـ « هل ناديتنى يا سيدى ؟» ويجيب مأمور البريد متسائلا بدوره :ـ « ماذا تفعلين »؟ فتجيبه قائلة :ـ « على ان اذهب فاشعل نار المطبخ » ويجيبها مأمور البريد قائلا :ـ « اوه ... دعى نار المطبخ تنتظر قليلاً ، واشعلى لى غليونى أولا » .

وتدخل راتان فى النهاية بوجنتين منتفختين وهى تنفخ بشدة فى شعلة تنبعث من الجمر الذى يحرق الدخان . وهذا يتيح لمأمور البريد فرصة الثرثرة معها فيقول : « حسنا يا راتان هل تذكرين أى شىء عن أمك »؟ وكان هذا هو الموضوع الخصب بينهما ، فان راتان تذكر شيئا وتنسى شيئا . فانها كانت مغرمة بأبيها اكثر من أمها ، ولهذا فقد كانت تذكر عنه الشىء الكثير .. اذ كان من عادته ـ كما تقول ـ ان يعود الى البيت فى المساء بعد ان يفرغ من عمله اليومى . وكانت راتان تذكر مساء او مسائين من هذه الأماسى التى يعود فيها أبوها من عمله ، وتجلس راتان على الأرض بالقرب من قدمى مأمور البريد ، والذكريات تتلاحق فى ذهنها . فهى تذكر اخا صغيرا لها . وكيف انها فى ذات يوم غائم كانت تلهو معه بصيد السمك على طرف البحيرة . ولكن ما تذكره من الحوادث الصغيرة التافهة ، يدفع الى ذهنها بذكريات اخرى فتنطلق فى الحديث عنها ويمضى الوقت ويتقدم بهما الليل ، وأخيرا يجد مأمور البريد نفسه ، اهدأ فى طهو طعامه ، فتسرع راتان الى النار تشعلها ، وتقلو له قطعة من الخبز يأكلها مع البقية الباردة من وجبة الصباح ، وبذلك يفرغ معها من

وجبة العشاء . وفى بعض الامساء يجلس مأمور البريد على مكتبه فى ركن المظلة الواسعة ، ويشرع فى التحدث اليها عن ذكرياته الوظيفية وبيته ، وعن أمه وأخته ، وجميع اولئك الذين يتفطر قلبه حزنا على فراقهم فى منفاه البعيد . ذكريات كانت تلح عليه دائما ، وتطوف فى ذهنه باستمرار ، ولكنه لا يستطيع ان يتحدث بها الى عمال المصنع ، وإن كان يجد نفسه منطلقا فى الحديث عنها الى الصغيرة راتان ، بحيث أصبحت الفتاة تحن الى أمه وأبيه وأخته ، كما لو كانت قد عرفتهم طوال العمر ، ولاشك انه قد اصبحت لكل منهم صورة مطبوعة فى قلبها .

وفى ذات يوم ، عند الظهيرة ، وقد توقف سقوط المطر قليلاً ، وهبت نسمة باردة ناعمة . وأرج الأعشاب المبتلة ، وأوراق الشجر ، تحت اشعة الشمس الحارة ، كانت كأنها أنفاس حميمة دافئة . وكان طير يردد طوال وقت الظهيرة اغنيته الوحيدة الشاكية ، ولم يكن لدى مأمور البريد ما يشغله ، وكان التماع أوراق الشجر التى غسلتها الأمطار والسحب الطافية فى الأفق منظراً راق له ، واستغرق يتأمله فى صمت وسكون ، وهو يفكر ويتمنى لو أن روحا لطيفا كان بالقرب منه .. لو ان انسانا محبا يجلس بجانبه ويضمه الى قلبه . وقال فى نفسه : « ان ذلك ما يحاول ان يقوله هذا الطائر المغرد »، وهو نفس الشعور الذى تحاول اوراق الشجر فى همسها الدائم ، ان تعبر عنه ، ولكن لم يكن احد يدرى او يصدق أن فكرة كهذه يمكن ان تستغرق ذهن مأمور بريد ضئيل الراتب فى عطلة الظهيرة ، عميقة الصمت فى ذات يوم .

وتأوه مأمور البريد ونادى راتان ، التى كانت عندئذ مستلقية بطولها على أحد أشجار الجوافة ، مشغولة بقضم إحدى ثمارها . وما كادت تسمع صوت سيدها حتى ركضت لاهثة الأنفاس وهى تقول : « هل ناديتنى يا سيدى ؟» . وحين وقفت امامه قال لها:« كنت افكر فى ان أعلمك القراءة .. » ثم أخذ يعلمها الألف باء طوال وقت الظهيرة .

وهكذا استطاعت راتان ان تتعلم فى وقت قصير اكثر حروف الهجاء .

وكان يبدو أن المطر لن يكف عن الهطول . وقد امتلأت القنوات والأخاديد والحفر بالمياه . وقد ظل ينهمر ليلاً ونهاراً ، وظل صوت الضفادع يتعالى مع صوت سقوط المطر ،

وأصبحت طرق القرية كلها غير صالحة للمرور ، كما اصبح الذهاب الى السوق يستلزم ركوب القوارب الصغيرة .

وفى ذات صباح غائم ، كانت تلميذة مأمور البريد الصغيرة تنتظر نداء سيدها عند الباب الخارجى . ولكن عندما لم تسمع نداءه المعتاد أخذت كتابها ودخلت فى هدوء الى الغرفة ، حيث وجدت سيدها مضطجعاً على فراشه . وخطر لها انه ربما كان يستريح ، وكادت تعود من حيث أتت على رؤوس أصابعها ، ولكنها سمعت صوته فجأة يناديها فالتفتت اليه وسألته قائلة : « هل كنت نائما يا سيدى ؟ » ولكن مأمور البريد اجابها فى صوت هزيل قائلا :ـ « لست على ما يرام هذا اليوم ... ضعى يدك على رأسى ، إنه حار جدا » .

كان مأمور البريد يحتاج فى الوحدة التى يعانيها فى منفاه ، وفى هذاالجو الغائم الكئيب ، الى شىء من الرعاية الحنون . وكان يتشوق الى ان يستعيد الى ذهنه لمسات الأيدى الناعمة ذات الأساور الرنانة على جبهته . وان يستحضر خياله صورة الأنوثة الحبيبة التى كان يشعر بها حين كان بين أمه وأخته .

ولم يخيب المنفى ظنه .. اذ لم تعد راتان تلك الفتاة الصغيرة التى يعرفها دائما .. وانما هى قد اخذت لتوها مركز الأم . فاستدعت طبيب القرية ، وتولت إعطاءه الحبوب التى وصفها الطبيب فى مواعيدها المقررة ، وظلت طوال الليل الى جانب وسادته . وطهت له الطعام الذى يريده ، وهى تسأله بين فترة واخرى:ـ « هل تشعر باى تحسن يا سيدى ؟» .

وانقضى وقت قبل ان يستطيع مأمور البريد ـ مع ما أصبح يعانيه من ضعف وهزال ـ أن يترك فراش مرضه وهو يقول مصمماً : « كفى .. يجب ان اطلب النقل من هذا المكان » . ولم يضع وقتا فقد كتب الى رؤسائه فى كلكتا طلباً بالنقل نظراً لعدم ملاءمة المكان لصحته .

وما كادت راتان تفرغ من مهمتها كممرضة ، حتى عادت الى مكانها السابق على الباب الخارجى ، ولكنها لم تعد تسمع ذلك النداء القديم ، فلا تملك بعض الأحيان إلا ان تتلصص ، فتلقى نظرة الى داخل الغرفة ، حيث ترى مأمور البريد ، إمّا جالسا على كرسيه ، او ممدداً على فراشه ، وهو يحملق شارد الذهن فى الفضاء . وبينما كانت راتان تنتظر

نداءه المألوف ، كان مأمور البريد ينتظر الرد على طلبه . وظلت الفتاة تقرأ الدروس التى اخذتها منه مرات بعد مرات .. وأشد ما كانت تخشاه هو ان يجدها حين يناديها غير حافظة ما أخذته منه من هذه الدروس .

وبعد إنتظار دام اسبوعا سمعت النداء أخيرا . واندفعت راتان بقلب طافر الى الغرفة ، وهى تهتف كما تعودت ان تهتف دائما « هل ناديتنى ياسيدى ؟ »... وقال لها مأمور البريد : « إنى ذاهب غدا يا راتان » .

ـ « والى اين تذهب يا سيدى ؟ » .

« ذاهب الى بلادى » .

ـ « ومتى تعود يا سيدى ؟ » .

ـ « لـن اعـــود » .

ولم توجه اليه راتان اسئلة أخرى .. ولكن مأمور البريد شرع يخبرها متطوعاً ، ان الجهات المسؤولة لم توافق على طلب النقل ، لهذا فقد استقال من عمله وسيعود الى أهله .

ولم ينبس أحدهما ببنت شفة ، وكان المصباح يشتعل ويرسل ضوءاً كابياً ، والماء ينساب من ثقب فى أحد الأركان فى حوض من الطين على الأرض باستمرار .

ونهضت راتان بعد برهة ، وخرجت الى المطبخ حيث أعدت له وجبة الطعام .. ولكنها لم تعد تزاول عملها بتلك السرعة التى كانت تزاوله بها من قبل ، واخذت تتلاحق فى ذهنها أشياء كثيرة جديرة بالتفكير . وحين فرغ مأمور البريد من عشائه سألته الفتاة فجأة : ـ

ـ هل تأخذنى الى بلادك معك يا سيدى ؟ » .

وضحك مأمور البريد وهو يقول : « يالها من فكرة » .. ولكنه لم ير لزوماً لأن يوضح للفتاة سبب السخافة فى مثل هذه الفكرة .

وظل جواب مأمور البريد الضاحك يتردد على ذهنها فى صحوها او منامها طوال الليل .

وحين استيقظ فى صبيحة اليوم التالى وجد حمامه جاهزاً ، وقد كان ما يزال يحافظ على عادته فى الاستحمام صباح كل يوم من ماء يوضع له فى جردل ، بدلاً من ان يغطس فى النهر كما هى عادة القرويين .

ولم تستطع الفتاة لسبب او آخر ان تسأله عن يوم رحيله . ولهذا فقد احضرت له الماء من النهر قبل شروق الشمس ليجده جاهزاً عندما يريده . وبعد ان فرغ من استحمامه سمعت راتان صوته يناديها . دخلت دون ان تحدث صوتا وظلت تتطلع الى وجه سيدها منتظرة أوامره ، وقال لها :ـ « ليست بك حاجة الى ان تقلقى على ذهابى يا راتان فإنى سأوصى من يخلفنى بأن يعنى بك » .

وكان فى هذه الكلمات الرقيقة ما يكفى لازالة كل شك فى بقائها .. ولكن ما أشد غموض الوسائل والطرق فى قلوب النساء !!

فقد كانت راتان تتحمل من سيدها الكثير من التعنيف والزجر دون اية شكاة او ألم ، ولكنها لم تستطع ان تتحمل وقع هذه الكلمات الرقيقة فانفجرت تبكى وهى تقول :ـ « كلا .. كلا ... ليست بك حاجة الى ان توصى بى أحداً ما ... سوف لا امكث هنا بعد اليوم » .

ودهش مأمور البريد إذ لم ير راتان قط فى مثل حالتها هذه من قبل .

ووصل الموظف الذى سيتسلم العمل فى موعده المقرر ، وسلم مأمور البريد إليه عمله ، وأخذ يتأهب للرحيل ، وقبل ان يبدأ رحلته نادى راتان وقال :ـ « إليك شيئا يساعدك فترة من الوقت » . ثم أخرج من جيبه مرتب الشهر الذى استلمه بعد ان احتفظ بالقليل من مال لينفقه على رحلته . ولكن راتان تهالكت على قدميه وهى تصيح :ـ « أرجوك يا سيدى ألاَّ تعطينى شيئاً وألاَّ تشغل نفسك بأى شىء من جهتى » ... ثم خرجت مسرعة وغابت عن ناظريه .

ونفث مأمور البريد آهة طويلة من صدره ، وتناول حقيبته ووضع مظلته على كتفه ، وتسلل فى بطء وتمهل ، يرافقه من يحمل له صندوقاً من الصفيح كثير التلوين ، الى القارب الراسى على شاطىء النهر .

وعندما استقر به المقام فى القارب الذى بدأ ينساب على صفحة النهر وقد أتخمته الأمطار ، فبدا كأنه تيار من الدموع ينبع من الأرض ، ويتلوى وينشج باكياً كلما مر بمنحنياتها ، أحس بالحزن فى قلبه . والوجه الذى صفعه الأسى لتلك الفتاة القروية بدا وكأنه يمثل ذلك الحزن الأخرس الذى ينتشر على وجه الأرض نفسها .. أحس للحظة ، بدافع يهيب به ان يعود فيصطحب ذلك المخلوق المشرد فى عالم أسلمه للوحدة والضياع .

ولكن الريح كانت قد ملأت الأشرعة ، واصبح القارب فى قلب التيار المتدفق ، وأخذت القرية تتوارى الى الوراء ، كما أخذت ارضها اللاهبة تتلامح عن بعد ..

وهكذا أصبح المسافر طافيا على صدر النهر المنطلق فى جنون ، وأخذ يحاور نفسه بأفكارٍ فلسفية عن مئات اللقاءات ، ومئات مثلها للفراق فى هذا العالم ، ثم عن الموت وذلك الفراق الكبير الذى لا رجعة منه الى الأبد .

ولكن « راتان » لم تكن لها فلسفة ، فقد كانت تملؤها الحيرة والأسى لفراق مأمور البريد والدموع تنساب من عينيها . ولعلها كانت تعايش أملاً فى جانب من جوانب قلبها ، يتطلع الى عودة صاحبها .. ولعلها ايضا ، وهذا الأمل فى قلبهـا ، قد استطاعـت ان تتصبّر ، فلا تُمزِّق نفسها حزنا على فراقه .

* * *



وجيه من نايانجور

كان وجهاء نايانجور ، فيما سلف من قديم الزمان ، معروفين بأنهم ملاك الأرض ، وقد اشتهروا باسرافهم الملكى ، وبذخهم اللذين لا يقفان عند حد . فقد يمزقون حواشى ثيابهم من القطن الممتاز ، لأنها تخدش بشرتهم الرقيقة الناعمة . وقد ينفقون عشرات الألوف من الروبيات لإقامة حفلة زفاف قطة من القطط المدللة لديهم .. بل يقال إن الأمر قد بلغ بهم . أنهم يوقدون ما لا يعد ولا يحصى من المصابيح ثم ينثرون فى الجو ، من شرفات قصورهم الشاهقة ، خيوطاً من الفضة الخالصة ليقلبوا الليل نهاراً ، والظلام الدامس ضحى ساطعاً .

ولكن هذا ، كان فى أيام خلت ، وعهود مضت وأنقضت . ثم قلب لهم الدهر ظهر المجن ، وتوالت عليهم النكبات والمحن ، ولم تستطع هذه السلالة من وجهاء العالم القديم ، بما كان لها من عادات السيادة وتقاليدها أن تقاوم ضربات الدهر طويلاً ، وكما يخبو ضوء المصباح ذى الشعل المتعددة حين ينفد زيته ، خبا ضوؤهم ، ولم يبق لهم من ثراء الأجداد ، سوى الذكريات يلفها الضباب .

وكان جارنا ، كيلاس ، آخر من يخفق بجناحين مهيضين من ذلك السرب من وجهاء نايانجور . إذ كانت البقية الباقية من أسرته ، قد أوشكت على الانقراض قبل أن يشب ويترعرع . وحين مات أبوه ، كانت جنازته هى آخر مظهر من مظاهر البذخ والترف ، ولا شىء بعدها إلا رهق الحياة وعسرها . فقد بيعت الممتلكات لتصفية الديون . وما بقى من المال بعد هذه التصفية لم يكن يكفى للمحافظة على مظاهر الجلال المتوارث العريق .. وغادر كيلاس . « نايانجور » أخيراً ، وقدم إلى كلكتا ، ولم يطل بابنه البقاء فى دنيا المجد الغارب ، فمات تاركاً له ابنته الوحيدة .

وكنا نحن فى كلكتا جيراناً لكيلاس ، ومن غرائب الاتفاق أن تاريخ أسرتنا على طرف النقيض تماماً من تاريخ أسرته . فقد كون أبى ثروته بعرق جبينه ، وأخذ نفسه على ألا ينفق فلساً واحداً إلا فى ما يقتضى الانفاق ، وكانت ملابسه ملابس الرجل العامل دائماً ، كما كانت يداه كذلك أيضاً ، ولم تكن له رغبة قط فى أن يتظاهر بالوجاهة عن طريق البذخ والتبذير .. وأنا ، ولده الوحيد ، لا يسعنى إلا أن أثنى عليه ، فقد أتاح لى أن أحظى بأفضل نصيب من الثقافة والتربية والعلم . فاستطعت بذلك أن أشق طريقى فى الحياة . وانى لأفخر بأنى قد صنعت نفسى بيدى . وأوراق النقد فى خزانتى الحديدية أغلى وأثمن عندى من شجرة نسب طويلة فى صندوق أسرة عريقة يتضور أطفالها جوعاً . وأعتقد أن هذا هو السبب فى أنى كنت أكره رؤية الوجيه كيلاس ، وهو يسحب من مصرف الوجاهة العريقة المفلس رصيداً زهيداً من احترام الناس وتقديرهم ، وكنت أشعر أنه ينظر الىّ نظرة استعلاء ، ويستصغر شأنى ، لأن أبى يربح المال من عرق الجبين .

وكان يخلق بى أن الحظ ، أنى ربما كنت الوحيد الذى يصدُّ عنه ويضيق به ، بين جميع عارفيه من جيرانه ، إذ لاشك فى أنه كان من المتعذر أن تجد عجوزاً ، أقل منه شراً وأذى . وكان على قدم الاستعداد دائماً ، لتقديم ذخيرته من النشاط ، فى مشاركة الغير أفراحهم ، يحضر جميع الحفلات .. ويشهد جميع الاحتفالات الدينية التى يقيمها الجيران ، وابتسامته الرقيقة الودود ترحب وتحبو الصغار والكبار على السواء .. ولم يكن فى تأدبه وهو يستزيد من تفاصيل الحوادث العامة ، مايضايق أو يرهق .. والأصدقاء الذين يقابلونه فى الشارع ، عليهم أن يستعدوا راغمين ، لأن يحلى صدورهم بوردة ، بينما يسترسل فى طائفة من الأسئلة يلاحق أحدها الآخر :ـ

ـ « يسرنى أن أراك يا صديقى العزيز ، هل أنت على مايرام ؟ وكيف حال ساشى ؟ ودادا ؟ هل هو بخير ؟ هل تدرى ؟.. لقد سمعت الآن فقط أن ابن صديقنا ما دهوس .. مريض بالحمى .. كيف حاله ؟ هل سمعت ؟ .. ثم السيد هارى تشاران .. أنى لم أره منذ زمن طويل ، أرجو ألاَّ يكون مريضاً ... وما خطب راخال .. و .... و ... وكيف حال السيدات عندك ؟ » .

ومع أن ماكان يملكه كيلاس من الملابس .. محدود جداً ، فهو أنيق الهندام ، نظيف فى

جميع الظروف والمناسبات ، وكان من عادته ، أن ينشر ثيابه ومعاطفه ، وسراويله يومياً ، فيضعها تحت الشمس مع ملايات سريره ، وكيس وسادته ، وسجادته الصغيرة التى يجلس عليها دائماً . وبعد أن يعرض كل هذه الأشياء للشمس والهواء ، فترة كافية ، يأخذ فى نفضها ، ومسحها ، ثم يضعها فى عناية بالغة ، ناحية من المكان .

وكانت قطع الأثاث القليلة ، كافية لأن تجعل غرفته الصغيرة ملائمة لاستقبال ضيوفه . وتوحى بأن لديه المزيد من الأثاث إذا لزم الأمر ، وكثيراً ماكان يغلق بابه فترة من الزمن ، أمام ضيوفه إذا ما أعوزه الخادم ، حيث ينصرف إلى كى ثيابه ومناديله ، ويقوم ببعض الأعمال الحقيرة الأخرى التى لايقوم بها إلا بسطاء الخدم فاذا مافرغ ، قام وفتح الباب ، وأستعد لاستقبال زائريه وأصدقائه .

ومع أن كيلاس قد فقد جميع أراضيه وممتلكاته ، فانه مايزال يحتفظ ببعض المقتنيات التى ورثتها أسرته عن سلسلة طويلة من الأجداد ، ومن هذه المقتنيات ، مِرَشٌ من الفضة ، ترش به المياه العطرية وصندوق من الأسلاك والرقائق الفضية المخرمة تحفظ فيه زجاجات العطور النادرة ، وصينية صغيرة من الذهب الخالص ، وشال أثرى ثمين .. وهذا عدا الملابس التقليدية التى يرتديها فى الحفلات والمواكب الرسمية .

وقد استطاع كيلاس أن ينقذ هذه المقتنيات من قبضة الدائنين بشىء لا يستهان به من الصعوبات والمتاعب . وهو كلما لاحت له فرصة مواتية يخرج مقتنياته الغالية فى كثير من الاحتفال والابهة والجلال ، ثم يعرضها على أنظار زائريه ، وبذلك ينقذ كرامة وجهاء نايانجور التى تملأ آفاق الدنيا ، وعزتهم الباقية على مر العصور .

ولم يمض وقت طويل حتى تعلم الجيران أن ينادوه « مولانا ذاكور » وقد يتوافدون على بيته ، ثم يجلسون معه ساعات طويلة من الليل ، ورغبة منهم ، فى أن يحولوا دون تكليفه شيئاً من النفقات يجيئه واحد منهم بكمية من الطباق . وهو يقول :

ـ « مولانا ذاكور .. قد وصلتنى اليوم كمية من الطباق من « جايا » وأرجو أن أعرف كيف تجد هذا الصنف » .

ويدخن مولانا ذاكورهذا الطباق ، ثم يقول إنه طباق ممتاز حقاً ، ثم يستطرد فيتحدث

عن صنف معين نفيس جداً من الطباق كان وجهاء نايانجور يدخنونه فى الأيام الخالية وقيمة الأوقية الواحدة منه جنيه ذهبى كامل .

ثم يردف قائلاً :

ـ « لا أدرى ما إذا كان أحدكم يود أن يجرب تدخين لفافة منه الآن .. لا يزال لديَّ القليل وأستطيع أن أجيئكم به إذا شئتم .. » .

ولكن كل واحد منهم كان يعلم ، أنه إذا طلب منه أن يرى هذا الطباق أو يجربه ، فان مفتاح دولاب مولانا ذاكور يكون ضائعاً أو أن « جانيش » خادم الأسرة القديم ، قد وضعه فى مكان ما لا يدرى عنه مولانا ذاكور .

وعندئذ ، قد يردف قائلاً :

ـ « لعمرى لا يدرى المرء أين تذهب الأشياء حين يغيب الخدم .. جانيش هذا .. كم هو مغفل حقاً ، ولكن لا يهون علىّ أن أطرده » .

ولكن جانيش من جانبه ، كان دائماً على استعداد ، وفاء للأسرة التى خدمها طويلاً ، أن يتحمل كل مايوجه إليه من لوم وتقريع دون أن ينبس بكلمة واحدة . وسرعان مايتطوع أحد الجالسين عند هذه المرحلة أن يقول :

ـ « لا عليك ، يا مولانا ذاكور .. نرجوك ألاَّ تكلف نفسك عناء البحث عن المفتاح الآن .. والطباق الذى ندخنه لا بأس به اطلاقاً .. ثم نخشى أن يكون الصنف الآخر حامياً علينا » وعندئذ يتنفس مولانا ذاكور الصعداء ، ويعود إليه هدوؤه ويسكن طائره ثم يستأنف معهم ماكان يدور بينهم من حديث .

وحين يتأهب ضيوفه للخروج ، يصحبهم مولانا ذاكور إلى عتبة البيت ثم يقول وهو يودعهم :

ـ « أوه .. بهذه المناسبة .. متى ستجيئون جميعكم للعشاء معى ؟ » وعندئذ يجيبه هذا أو ذاك منهم :

ـ ليس الآن . يا مولانا ذاكور ، ليس الآن .. سوف نعين يوماً ، فى وقت آخر .. فيجيب :

ـ « حقاً .. حقاً .. يحسن أن ننتظر إلى أن يحل موسم الأمطار .. فالحر شديد جداً الآن .. ولاشك أن حفلة عشاء كالتى أريد أن أقيمها لكم ، ستكون مزعجة فى مثل هذا الجو .. » .

ولكن عندما يحل موسم الأمطار ، يحرص كل منهم أشد الحرص على ألاَّ يذكره بوعده ، فاذا ماتطرق الحديث إلى ذكر الموضوع فان أحدهم يستدرك الأمر ، فيقترح فى لطف ، أن اقامة الحفلة فى مثل هذا الجو ، والمطر ينهمر بغزارة أمر لا يستحب بأية حال ولذلك فالأولى أن يؤجل ، إلى أن ينتهى الموسم .

ويستمر تمثيل هذا الفصل مرة بعد أخرى كلما جاء فصل وذهب آخر من فصول العام .. وكان بيت مولانا ذاكور أصغر وأضيق من أن يتسع لمركزه ومكانته ، وقد تعودنا أن نشاركه الأسى والأسف على هذه الحال ، فيؤكد له أصدقاؤه .. « أنهم يفهمون المتاعب التى يعانيها تماماً .. إذ من المستحيل تقريباً أن يعثر المرء على منزل محترم فى كلكتا . وأنهم جميعاً يبحثون له منذ سنوات عن بيت يتفق مع شخصيته » . وان كان مما لا يحتاج إلى ايضاح أن أحداً من أصدقائه لم يكن من الغفلة بحيث يكلف نفسه عناء البحث عن أى بيت آخر .

ولكن مولانا ذاكور ، يعقب على مثل هذه التعليقات قائلاً :

ـ « حسناً .. حسناً .. أيها الأصدقاء .. أظن أنه قد آن لى حقاً أن اتخلص من هذا البيت ، ولكن .. ولكننى لا أحتمل الابتعاد عن أصدقائى .. يجب أن أظل بالقرب منكم .. وهذا بالتأكيد يعوضنى عن كل شىء .. » .

ولقد شعرت بكل هذا شعوراً عميقاً حقاً ، وأظن أن السبب الحقيقى هو أن المرء حين يكون فى عنفوان شبابه تبدو البلادة أو الغفلة أشنع الجرائم فى نظره .. ولم يكن الوجيه كيلاس بليداً أو أحمق فى الواقع .. وكل صديق من أصدقائه لايتردد فى أستشارته وأخذ رأيه ، فى شؤون الأعمال المعتادة ، ولكن أحاديثه عن وجهاء نايانجور ، كانت أكثر من أن تحتمل ، ونظراً إلى أن أحداً من أصدقائه لم يكن يعترض على مبالغاته التى يستحيل تصديقها ، حباً فى عدم الاساءة الى شعوره ، فقد كان ، هو من جانبه لايقف عند حد ، وحين يأخذ بعضهم فى التحدث عن مفاخر ومآثر وجهاء نايانجور فى مبالغات سخيفة لا تطاق ، كان هو يتقبل مايقولونه ، فى جد صارم دون أن يساوره أدنى شك ـ حتى فى أحلامه ـ فى أن أحداً لا يصدق شيئاً مما يقال .

وحين أخلو إلى نفسي وأحاول أن أحلل الأفكار والمشاعر التي أحملها نحو الوجيه كيلاس ، أجد أن هناك سبباً أعمق لعدم أرتياحي إليه .

فاني وان كنت ابن رجل غني . وربما قد بددت وقتاً في الكلية فان اجتهادي قد أتاح لي أن أحصل على درجتي الجامعية في سن مبكرة ، دون أن تشوب سجل سلوكي أية شائبة . هذا إلى أن مظهري الخارجي كان من الاناقة والرشاقة بحيث لو وصفت نفسي بالجمال ، لما تجاوزت الواقع في شيء ، ولم يكن هناك جدال في أن أبويَّ ، كانا ينظران اليّ باعتباري في طليعة شباب البنغال لياقة وكفاءة لأجمل فتاة ، في أكرم بيت . وكنت من جانبي واضحاً فيما يختص بهذه المسألة ، وقد صممت على أن أنتفع بجميع خصائصي ومؤهلاتي في سوق الزواج . وحين كنت أتصور الفتاة التي سأختارها كنت أضع نصب عيني ، فتاة هي وحيدة رجل واسع الثراء ، جميلة الى حد يجل عن الوصف ، وقد نالت أكبر حظ من الثقافة والتعليم . والواقع أن عروض الزواج قد انهالت عليّ ، تعززها مبالغ كبيرة من المال ، وقد ظللت أزن هذه العروض بانصاف دقيق في ميزان تقديري الشخصي المرهف ، ولكن لم تكن بينها أية واحدة تصلح لتكون شريكة حياتي .

ولعل القارىء لم ينس ، أني قد ذكرت ، أن لمولانا ذاكور حفيدة ، ليس له سواها .. وقد رأيتها مرات كثيرة ولكني لم أظن قط أنها جميلة ، ولم يدر بذهني اطلاقاً أن من الممكن أن تكون زوجاً لي .. ومع ذلك فقد بدا لي أن مولانا ذاكور سيعرضها عليّ حتماً في يوم ما ، مع جميع ماينبغي من الاجلال والتكريم كقربان لمعبد شخصيتي المقدس .. وهذ هو بلا ريب هو السبب الخفي لكراهيتي له واستثقالي ظله ، فقد كان يضايقني أشد المضايقة أنه لم يخط الخطوة التي أتوقعها منه حتى اليوم . وقد سمعت فيما سمعته عن وجه نايانجور ، أنه قال لأصدقائه:« ان وجهاء نايانجور ، لم ينحنوا لأحد قط ، وانه لن يحط تقاليد أسرته العريقة ، حتى ولو كان في ذلك بقاء حفيدته دون زواج .. » وكان هذا الصلف المتبختر ، الذي يتعلق بأذياله ، هو الذي أحفظني عليه ، وأغاظني منه ، فكنت أحرق عليه الأرّم فترة من الوقت ، ولكني ظللت أتذرع بالصبر ، وأستمرىء حنقي كثير من الاناة والتعقل .. لأني .. لأني كنت إنساناً طيباً بالطبع .

وكما يصاحب البرق الرعد ، يختلط فى اخلاقى ألق الدعابة المرحة ، بزمجرة الحنق المتحفز ، وكان يستحيل علىّ بالطبع أن أقتص من الرجل العجوز لمجرد الرغبة فى التنفيس عن أعصابى ، وفثء مايتراكم من غضبى وسخطى . وقد ظللت فترة طويلة من الوقت لا أفعل شيئاً على الاطلاق . ولكن خطرت لى فجأة ذات يوم خطة لم أستطع أن أقاوم اغراءها الملح ، بأن أضعها موضع التنفيذ دون تردد .

وقد سبق أن ذكرت أن كثيراً من أصدقاء كيلاس يسرفون فى ارضاء غروره بالمبالغة فى اطرائه والاعظام من شأنه . وحدث ، أن أحدهم ـ وكان موظفا متقاعداً ـ قال له مرة ان « شوتالات صاحب » يسأل عن آخر أنباء وجهاء نايانجور ، وأنه قال ان الأسرتين العريقتين الجديرتين بالاحترام فى البنغال هما أسرة مهراجا جوسيبور وأسرة وجهاء نايانجور . وحين سمع كيلاس هذه الكذبة الهائلة تاه وتبختر ، وظل يعيدها على الاسماع ، وأشتدت حفاوته بالموظف المتقاعد فاذا ماقابله راح يسأله :

ـ « وبهذه المناسبة ، قل لى كيف حال الشوتالات صاحب ؟ هل هو بخير .. أوه .. حسناً .. كم يسرنى أن أسمع ذلك .. وكيف حال السيدة قرينته ؟! .. أهى بخير أيضاً ؟! .. حسناً والأطفال الصغار ؟ حسناً .. حسناً .. تلك أخبار سارة حقاً . لاتنس ، حين تراها مرة أخرى ، أن تهديهم تحياتى واحترامى » .

وكثيراً ما أعرب كيلاس ، عن رغبته فى الذهاب ، يوماً لزيارة الشوتالات صاحب ...

فجئته ذات يوم وقلت له انى كنت ازور الشوتالات صاحب ، وقد حدث أن ذكر سعادته أسرة نايانجور العريقة ، فذكرت له أن الوجيه كيلاس قد جاء إلى المدينة .. فهل تدرى ماحدث ؟ لقد تألم سعادته كثيراً لأنك لم تؤد واجب المجاملة المعتاد فتتكرم بزيارته ، وقد قال انه مع ذلك سيغض النظر عن التقاليد المرعية ، وسيقوم هو بزيارتك بعد ظهر اليوم » .

وأى مخلوق ، غير مولانا ذاكور ، كان خليقاً بأن يدرك المكيدة التى تدبر له . ولو كان الحديث موجهاً الى شخص آخر وسمعه مولانا ذاكور ، لادرك على التوما وراءه من دعابة ساخرة . ولكنه بعد الذى سمعه من صديقه الموظف المتقاعد ، وبعد الكثير من مبالغاته عن نفسه ، بدا له ، أن زيارة الحاكم له أمر من أقرب الأمور الى طبيعة الأشياء . وقد

انفعل وثارت أعصابه للخبر إلى حد بعيد ، وكانت أعقد المشاكل التى حسب لها ألف حساب ، هى جهله باللغة الإنجليزية . ولكنى أخبرته أن الأمر ليس مشكلة اطلاقاً ، وأن من مظاهر الارستوقراطية ألا يعرف الوجيه حرفاً واحداً من هذه اللغة ، هذا الى أن الحاكم يصطحب معه مترجماً ، ثم أنه قد أكد أن هذه الزيارة شخصية خاصة وليس فيها مايستلزم التقيد بالرسميات اطلاقاً .

وعند الظهر ، حين كان أكثر الجيران لايزالون فى أعمالهم ، وبعضهم نائم ومستريح ، وقفت عربة أمام منزل كيلاس وجيه نايانجور ، وصعد خادمان ، كل منهما يرتدى حلة خاصة بخدم الكبراء إلى السلالم ، وأعلنا معاً فى صوت مرتفع عن قدوم « شوتـالات صاحب » .

وكان كيلاس قد استعد لاستقبال القادم الكبير ، فى حلته التقليدية التى يرتديها الوجهاء فى المواسم والأعياد ، ووضع على رأسه العمامة التى عرف بها أسلافه الوجهاء . وإلى جانبه جانيش خادم الأسرة القديم ، وقد أرتدى ـ احتفالاً بهذه المناسبة النادرة ـ أفضل الملابس التى يرتديها سيده فى الأيام المعتادة .

وحين أعلن الخادمان قدوم « الشوتالات صاحب » أسرع الوجيه كيلاس راكضاً لاهثاً ، مرتعشاً إلى الباب ومشى محتفياً ، وهو يردد الكثير من عبارات الترحيب أمام صديق من أصدقائى وقد تنكر فى زى خاص لتمثيل دور الحاكم ، أمام وجيه نايانجور العريق .

وكان كيلاس وهو يمشى ، مرحباً بالحاكم الموهوم ، يقف بعد كل خطوة وينحنى ، ثم يعود إلى المشى إلى الوراء ، كلما وسعه ذلك ، إلى أن وصل ضيفه الخطير الى غرفة الاستقبال ـ وكان قد أعد فى صدرها كرسياً ، نشر عليه شال الأسرة التاريخى الثمين ـ فتقدم بين يدى ضيفه ، وهو يرجوه الجلوس فى المكان الذى أعده له . وعندئذ وقف يلقى أمامه خطبة باللغة الأوردية وهى لغة البلاط التقليدية .

ثم قدم فى الصينية الصغيرة من الذهب الخالص حلقة الأختام الذهبية . بينما وقف الخادم القديم خلف الضيف ، وفى أساريره الكثير من الاهتمام والقلق والخوف ، فى يده المرش الفضى ، يرش به ماء الورد على ظهر الحاكم ورأسه ، ثم يضمخه بين فترة وأخرى بالعطور من ذلك الصندوق من الفضة المخرمّة .

وأعرب كيلاس لضيفه مراراً ، عن أسفه الشديد لعدم تمكنه من استقباله بما يتفق وجلال أسرته وعظمتها فى نايانجور ، ولو أن الزيارة كانت هناك ، لأمكنه أن يستقبله باحتفال أكبر وأكثر لياقة وبهاء . أما هنا فى كلكتا ، فأنه ليس أكثر من غريب ، وعابر سبيل ، أو على الأصح ليس أكثر من سمكة خرجت من الماء .

وكان صديقى ، فى قبعته الحريرية العالية ، يعبر بانحناءة من رأسه ، عن مسايرته ورضاه ، ولا أحتاج بالطبع أن أنبه الى أن العادة الانجليزية تستوجب خلع القبعة منذ الدخول الى الغرفة ، ولكن صديقى لم يجرؤ على خلعها ، خشية من أن يكتشف أمره ، بينما كان كيلاس وخادمه لا يدريان شيئاً عن هذه الطعنة التى توجه الى قاعدة من قواعد الاتيكيت .

وبعد مقابلة دامت عشر دقائق ، نهض صديقى ينهى زيارته التى كان أهم ماقام به فيها هو موالاة هز رأسه تأميناً على أقوال مولانا ذاكور . وماكاد ينهض حتى حمل الخادمان الخاصان تنفيذاً للخطة المرسومة من قبل ـ فى احتفال وعناية خاصتين حلقة الأختام والصينية المصنوعة من الذهب وشال الأسرة التاريخى ، والمرش الفضى ، وصندوق العطور من الفضة المخرمّة ، ثم وضعا كل ذلك فى العربة ، وظن الوجيه كيلاس أن ماحصل هو مألوف عادة الشوتالات صاحب ..

وكنت أنا أراقب كل هذا من الغرفة الأخرى ، وكانت أضلاعى تكاد تتقصف لطول ماغالبت من الضحك . وحين عجزت عن أن أمسك نفسى عن هذا الضحك أخيراً أندفعت الى غرفة أبعد من التى كنت فيها ، لاكتشف على غير انتظار فى أحد أركانها فتاة شابة تنشج باكية فى مرارة حتى ليكاد قلبها يتفطر توجعاً وأسى .

وحين سمعت ضحكتى المزمجرة الراعدة ، وقفت فى انفعال وتهيج وعيناها الكبيرتان السوداوان تومضان فى عينى ببريق غاضب صاعق ، ثم قالت فى صوت تخنقه العبرات :

ـ « قل لى ماذا بدر من جدى نحوك ؟ حتى جئت تخدعه ؟ ولماذا جئت الى هنا ؟ لماذا ؟ » ولم تستطع أن تقول بعد ذلك كلمة ، إذ أسرعت تغطى وجهها بيديها وتسترسل فى البكاء . وانقطع ضحكى فى الحال . ولم يكن قد خطر لى قط أن فيما فعلته شيئاً أكثر من دعابة مضحكة . وها أنذا اكتشف الآن أنى قد طعنت بفعلتى أعماق هذا القلب الصغير

الرقيق . وثارت نفسى تستنكر شناعة قسوتى ، فتسللت من الغرفة فى صمت ككلب الهبت ظهره السياط .

ولم أكن حتى اليوم قد نظرت الى « كوسوم » حفيدة الوجيه كيلاس بأكثر من نظرتى الى فتاة بائرة لاقيمة لها فى سوق الزواج ، تنتظر دون جدوى أن تقتنص زوجاً . ولكنى الآن أجد ـ الدهشة تملأ نفسى ـ أن فى ركن تلك الغرفة قلباً إنسانياً يخفق توجعاً وتألماً مما فعلت .

ولم يغمض لى جفن طوال الليل .. كان عقلى يدور .. وما كادت الشمس تشرق فى صبح اليوم التالى حتى حملت جميع المقتنيات التى سرقت من الوجيه كيلاس ، الى منزله لاسلمها سراً الى خادمه جانيش وانتظر خارج الباب فترة ، وحين لم أجد أحداً صعدت الى غرفة كيلاس حيث سمعت وأنا فى الممر ، صوت كوسوم تسأل فى صوت لم أسمع أرق منه ولا أكثر دلالا واحساساً :

ـ « حدثنى ياجدى الأعز ، بكل ماقاله لك الحاكم أمس .. ولاتنس كلمة واحدة مما دار بينكما . انى لاتلهف شوقاً الى أن أسمع كل ذلك مرة أخرى .. » .

ولم يكن مولانا ذاكور يحتاج الى تشجيع ، فقد كانت قسماته تومض فخراً وتيها ، وهو يعيد على مسمعها جميع عبارات الثناء والتمجيد التى تلطف بتوجيهها الشوتالات صاحب ، الى أسرة نايانجور العريقة . وكانت الفتاة تجلس أمامه وهى تنظر الى وجهه ، وتصغى باهتمام بالغ وقد صممت على أن تلعب دورها باتقان ، لايسمح بتسرب أى شك فى ذهن جدها الحبيب .

وقد تأثرت لما أسمع وأرى تأثراً بالغاً . وأمتلأت عيناى بالدموع . وظللت واقفاً فى صمت ريثما يفرغ مولانا ذاكور من سرد تفاصيل زيارة الشوتالات صاحب له . وعندما فرغ أخيراً وترك الغرفة ، أخذت المقتنيات ووضعتها تحت قدمى الفتاة وتقهقرت خارجاً دون أن أنبس بكلمة .

وعدت لزيارة كيلاس فى ساعة أخرى من ذلك اليوم . وكنت قد اعتدت فيما مضى تمشياً مع عاداتنا العصرية السخيفة ـ ألا أخص هذا العجوز بتحية أو مجاملة من أى نوع . أما اليوم فقد انحنيت أمامه انحناءة كبيرة بل ولمست قدميه . ولاشك عندى فى أن

هذا الرجل العجوز قد ظن أن زيارة الحاكم له هى السبب فى مابدا من تأدُّبى غير المتوقع ، وقد سر لذلك كثيراً . وكان أصدقاؤه قد بدأوا يتوافدون على مجلسه ، وشرع يقص عليهم مرة اخرى قصة الزيارة التى شرفه بها الحاكم فى كثير من الزيادات والحواشى والتعليقات ، حتى كادت القصة أن تصبح ملحمة من الملاحم وأسطورة من الأساطير .

وحين أستأذنه زائروه وغادروا غرفته أخيراً ، تقدمت إليه فى اجلال وتعظيم كبيرين ، ثم قلت :

ـ « اننى وان كنت لم أحلم قط ، بأن أحظى بشرف الاصهار الى أسرة عريقة كأسرتكم ، إلا أنى أطمع ... الخ .. الخ » .

وحين فرغت من اعلان خطوبتى لكوسوم ، نهض الرجل العجوز وعانقنى ، وانطلق يقول فى فرحة طاغية :

ـ « أنى لرجل فقير .. ولم أكن أتوقع قط مثل هذا الحظ السعيد » .

وكانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة فى حياته التى اعترف فيها الوجيه كيلاس بفقره .. وكانت أيضاً هى المرة الأولى والأخيرة فى حياته ، التى نسى فيها . ولو للحظة واحدة ، كرامة وجهاء نايانجور ..

* * *



سوبها

لم يكن يدور بخلدهم حين سموها « سوبها شينى » أنها حتى بعد ان تتخطى سنى الطفولة الاولى ستظل بكماء . وقد اطلق ابوها عليها هذا الاسم ، لان احدى أختيها كانت سوكشينى ، والاخرى سوهاشينى ، ووجد ان « سوبها شينى » اسم يتناسق وينسجم مع اسمى الاختين .. ثم أختصر الاسم على مر الايام وأصبح كل من فى المنزل يناديها « سوبها » .

وقد تزوجت أختاها ، بعد ان عانى الابوان ، الكثير من المتاعب والصعاب المألوفة للحصول على الزوجين من جهة ، ولدفع البائنة اللازمة لهما من جهة أخرى .

أما سوبها . فقد ظلت عبئا صامتا ثقيلا على قلبى الابوين الحزينين ، وبدا ان الجميع باتوا يعتقدون انها مادامت معدومة القدرة على الكلام ، فلابد ان تكون معدومة الاحساس والشعور ، ولهذا ، لم يكن ابواها يتحرجان من أن يبحثا موضوع مستقبلها وقلقهما عليه ، حتى ولو كان ذلك على محضر منها .

وكانت سوبها قد فهمت منذ طفولتها الاولى ان الاقدار قد بعثتها كاللعنة على بيت أبيها ، فأعتادت أن تنسحب وأن تعيش منعزلة ، منفردة عن الناس جميعا .

ولو كانوا جميعا يستطيعون ان ينسوها وان يسقطوها من حسابهم ، لهان عليها الأمر ، وربما استطاعت ان تحتمل شقاء حياتها فى صبر واستسلام ، ولكن من هو الذى يستطيع ان ينسى الألم ، فقد كان القلق عليها وعلى مصيرها ، شغل ابويها الشاغل ، ومصدر قلقهما الدائم .

وكانت أمها ، على الأخص ، اكثر احساسا بعبء وجودها ، وربما نظرت اليها نظرتها الى عاهة لا سبيل الى الخلاص منها . وليس هذا غريبا فعلاقة الأم بابنتها ، اوثق واوكد

من علاقتها بابنها . وما يشين الفتاة ، يشين الأم ويغدو ، وكأنه عارها الذى تعييها الحيلة فيه ، وتجهدها الرغبة فى الخلاص منه . وعلى هذا فقد كانت ام سوبها تكرهها تقريبا ، كما لو كانت وصمة على جسمها .

أما أبوها ، بانى كانتا ، فقد كان يحبها أكثر مما يحب ابنتيه الاخريين فى الواقع .

واذا كانت تنقص سوبها القدرة على الكلام ، فلم تكن تنقصها عينان واسعتان دعجاوان ، تظللها اهداب طويلة ، وشفتان ترتعشان كورقتى شجرة يداعبها النسيم ، استجابة لكل فكرة تومض فى ذهنها ، أو انفعال ينبض به احساسها . ونحن حين نعبر عن فكرة من افكارنا بالكلمة قد يتعذر علينا احيانا ان نجد الوسيلة والوسيط الذى ينقل هذه الأفكار الى نفوس الغير وقلوبهم ، وربما احتاج الأمر . الى ما يشبه الترجمة والتفسير الذى كثيرا ما يخطىء ويفشل ، فنقع فى الخطأ وينتج عن ذلك سوء الفهم . ولكن العيون السود تستغنى عن الترجمة والتفسير ، لأن الذهن نفسه ، يلقى عليها ظلال المشاعر والمعانى وفيها تتفتح الفكرة او تذوى ، وتشرق او تغيب فى الظلام البعيد . تتألق وتختال كالقمر الغارب ، او تومض وتختلج كالبرق يضىء جميع آفاق السماء . واولئك الذين يولدون وليس لهم من القدرة على الكلام سوى ارتعاش شفاههم .. يتعلمون لغة العيون .. وهى لغة لا نهاية لقدرتها على التعبير . عميقة كالبحر ، واضحة كالسماء فيها يبزغ الفجر ، وفيها تصخب اضواء الشمس الغاربة . فيها السنا المشرق الضاحك ، والظل المرتعش العميق . وللبكم ما للطبيعة نفسها من عزة تنطوى على نفسها ، وجلال يلوذ بصمته وعزلته ..

وهكذا كانت سوبها ، يخافها الأطفال ويتجنبون اللعب معها . فتعيش هى فى صمتها وعزلتها ، وكأنها وقت الظهيرة ، يتوارى عنه الناس ،وان ظل يغمر الكون كله ، بالضوء والدفء والحياة ..

وكانت سوبها تعيش فى قرية صغيرة اسمها تشانديبور ، وكان النهر الذى تقوم عليه القرية ، نهرا صغيرا بالنسبة للأنهار فى البنغال ، وقد ظل محصورا فى حدوده الضيقة ، كفتاة من الطبقة الوسطى . لم يحدث قط ، ان فاض هذا النهر الهزيل او تخطى شاطئه ، بل ظل دؤوبا على اداء واجبه ، وكأنه عضو فى كل اسرة من سكان القرى القائمة على

شاطئه ، وقد تناثرت عليها البيوت والضفاف المظللة بالأشجار ... وهكذا اصبحت آلهة النهر ـ وقد خرجت من عرشها الملكى ـ آلهة للحدائق والجنان فى كل بيت ، وعكفت ، وقد نسيت نفسها ، على اداء واجبها ، فى توزيع بركاتها وخيراتها بقدمين رشيقتين سريعتين .

وكان بيت بانى كانتا يشرف على النهر ، وكان كل بحار « فلايكى » من اصحاب القوارب السابحة على سطح النهر يستطيع ان يرى كل كوخ وعش على الضفاف . ولست ادرى ما اذا كان احد ـ خلال هذه المعالم من بحبوحة الحياة ووفرة خيراتها ـ قد لاحظ تلك الفتاة الصغيرة التى ما تكاد تفرغ من عملها فى البيت ، حتى تتسلل وتجلس على الضفة ، حيث الطبيعة نفسها تعوضها عن الرغبة فى الكلام وتتحدث باسمها ، عن كل ما تريد الافصاح عنه من مشاعر واحاسيس . فالجدول فى رغائه الخالد . واصوات القرويين ، واهازيج البحارة فى قواربهم ، وتغريد الطيور على الأغصان الحانية ، وبين الأعشاب النامية ، وحفيف الأشجار الملتفة ، تختلط وتتنسق بارتعاش قلبها ، كلها معا تصبح موجة مترامية من الصوت ، تتكسر على روحها القلق الحزين . كانت هذه الحركة الهامسة الطبيعية الباسمة ، هى لغة هذه الفتاة الخرساء . وكان حديث العينين السوداوين ، تظللها الأهداب الطويلة هى لغة هذه الدنيا عنها . ولم يكن فى الأشجار التى يغرد عليها الطير ، او فى النجوم الهادئة تتألق فى السماء الصافية شىء ، سوى امارات البكاء ، ودلائل التنهُّد والأنين .. وفى رقدة الظهيرة ، عندما يذهب البحارة والصيادون الى حيث يقيلون ، وحين ينام سكان القرية ، ويهجع الطير ، وتستكين حركة قوارب العبور ، وحين تتوقف حركة العالم الكبير ، ويتنفس الصعداء من حمى العمل الدائب . والنشاط المسعور ، وتغمره فجأة الوحشة والعزلة ويصبح كمارد رهيب ... حينئذ تحت هذه السماء الواسعة الموحشة ، لا نجد غير الطبيعة الخرساء ، والفتاة الخرساء ، قد قبعت كل منهما فى صمتها الدائم ، احداهما تحت ضوء الشمس الغامر ، والأخرى تحت ظلال شجرة صغيرة .

ولكن سوبها ، لم تكن محرومة من الأصدقاء كليا ، فقد كان لها فى الزريبة بقرتان ـ احداهما « سرباشى » والأخرى « بانجولى » وهما لم تسمعا قط اسميهما من شفتى سوبها . ولكنهما تعرفان وقع قدميها . ومعا انها لم تكن تستطيع ان تنطق بكلمة واحدة . فقد كانت تتمتم متوددة ، وكانت البقرتان تفهمان تمتمتها اكثر مما تفهمان اية لغة اخرى .

فاذا ما دللتها ولاطفتها ، أو عنفتها وزجرتها فهمتا ما تقصد ، اكثر مما يستطيع ان يفهم الناس ، وكانت سوبها تجىء الى الزريبة وترمى بذراعيها حول عنق سرباشي وتمسح وجنتيها بوجه صديقتها العجماء ، فسرعان ما تلتفت بانجولى وتحملق بعينيها الكبيرتين ثم تلحس وجهها . وكانت تزورهما الفتاة ثلاث مرات فى اليوم ، وقد تزيد على ذلك مرات اخرى كلما استلزم الأمر .. كانت اذا ما وجدت من الناس ما يؤذيها تسرع الى هاتين الصديقتين العجماوين ، لو لم يكن ذلك فى الأوقات التى تزورهما فيها .. وكان يبدو كأنهما تفهمان من أساريرها الحزينة آلام روحها واوجاع قلبها ، وقد كانتا تقتربان منها وتمسحان ذراعها بقرونهما ، وتحاولان بأسلوبهما الأخرس الحائر ، ان تروحا عنها وتسريا عن نفسها .. وكان لها عدا البقرتين معيز وقطة صغيرة ، ولكنها لم تكن ترتبط بهذه المخلوقات نفس الارتباط القائم بينها وبين البقرتين ، وان كانت كل منها تظهر لها نفس التعلق والود . فقد كانت القطة ، تقفز الى حضنها ، كلما وجدت فرصتها سانحة فى الليل او النهار ، ثم تستقر حيث هى ، وتأخذ فى النعاس وتقرقر لتظهر رضاها وتقديرها ، كلما مرت سوبها بأصابعها الناعمة على عنقها وظهرها .

وكان لها ، الى جانب هؤلاء جميعا ، رفيق من الحيوانات العليا ، وان كان من الصعب تحديد نوع العلاقة التى تربط بين الفتاة وبينه ، اذ مع انه يستطيع الكلام الا انه كان يستغنى عن قدرته معها . دون ان يستعيضا عن ذلك باية لغة مشتركة اخرى ، وكان هو ، اصغر ابناء اسرة جوسين ، ويسمى براتان .. فتى بليد كسول يئس ابواه من كل امل فى امكان حمله على القيام باى عمل ، بعد ان بذلا ـ دون جدوى ـ كل ما يستطيعان من جهد لتوجيهه وايقاظه من خموله الخلقى . وقد انتفع كل منهما من وضعه .. فانهما ـ وان كانت اسرة كل منهما تضيق به ذرعا ـ قد اصبحا فى القرية علمين يعرفهما الجميع . واذا لم يكن لهما ما يشغلهما ، فقد اصبحا ملك المجتمع ، ولا عجب فكما ان كل مدينة تحتاج الى ميدان يتنفس فيه الناس ، فان كل قرية تحتاج الى عاطلين او ثلاثة يستطيع اى فرد من السكان ان يقضى على حساب واحد منهم بعض الوقت حيث لا يكون لديه ما يشغله هو ايضا .

وكانت اكبر امانى براتاب ان يصطاد سمكة ، وقد افلح فى ان يبدد اطول وقت من عمره بهذه الطريقة . كان من يبحث عنه بعد الظهر من اى يوم يستطيع ان يجده مشغولا بهذه الأمنية التى لم تتحقق قط . وهناك كثيرا ما يقابل سوبها ، وايا كان ما يبحث عنه فهو يحب ان يجد بجانبه رفيقا ، وحين يكون المرء مشغولا بمحاولة صيد سمكة ، فان صديقا صموتا هو خير صديق ، وعلى هذا فان براتاب ، كان يحترم سوبها لصمتها ، وكما سمع الناس ينادونها سوبها ، فقد كان يظهر لها عطفه بان يدللها ، فيناديها « سو ». وكان من عادة سوبها ان تجلس تحت شجرة التمر الهندى ، ويجلس براتاب على مبعدة منها ، ويشرع فى القاء « سنارته » فى الماء . وكان يتزود فى جلسته بذخيرة صغيرة من التامبول . وكانت سوبها هى التى تعدها له ، وانى لأظن انها ـ وهى جالسة هناك تحملق طويلا فى الماء والفضاء ـ كانت تلح عليها الرغبة فى ان تؤدى له خدمة كبيرة وان تعينه على ما هو بسبيله الخائب من الصيد ، لتثبت بأية وسيلة كانت انها ليست عبئا هملا لا خير فيه فى هذا العالم .. ولكن لم يكن لها ما تفعله وليس لها من سبيل الى تحقيق ما تريد ، فكانت تتجه الى خالقها تدعوه فى صمتها أن يمدها بقوة نادرة ، تستطيع معها ، بمعجزة خارقة ان تباغت براتاب بما صنعت ليهتف مندهشا :ـ « يا للعجب .. لم اكن احلم قط ان سوبها تستطيع ان تفعل شيئا من هذا ».

وحسبنا ان نتصور ، لو ان سوبها كانت عروسا من عرائس الماء ، تخرج فى بطء من النهر ، وقد جاءت معها بجوهرة من تاج الثعبان الى البر ، فما يكاد يراها براتاب ، حتى يترك صيده الزهيد ، ثم يغوص الى العالم السفلى حيث لا يرى هناك ، على سرير من خالص العسجد ، فى قصر من خالص اللجين ، مخلوقا سوى الصغيرة « الخرساء » « سو » ابنة بانى كانتا .. بلى « سو » التى نعرفها ولكنها هناك ، الابنة الوحيدة المدللة ، لملك مدينة الماس والجواهر والدر ..

ولكن هذا قد لا يحدث ، بل قد يكون مستحيلا .. وليس ذلك لأن شيئا كهذا مستحيل فى الواقع ولكن لأن سوبها لم تكن مولودة فى بيت باتاليور الملكى العريق ، وانما فى اسرة بانى كانتا ... ولهذا لم تكن تعرف اية وسيلة تستطيع ان تثير بها دهشة سليل اسرة جوسين .

وقد نمت سوبها وترعرعت ، واخذت تجد نفسها ، وتعرفها شيئا فشيئا ، واخذ يزحف فى اعماقها وعى وادراك كالمد يزحف من عرض البحر حين يكون القمر بدرا .. اخذت ترى نفسها . وتسألها ... وتلحف فى السؤال ولكن دون أن تسمع جوابا قط .

وفى وقت متأخر من ذات ليلة ، حين كان القمر فى اوجه استدارة وتلألؤا ، فتحت الباب فى بطء ، وتوجس ثم خرجت .. وكانت الطبيعة نفسها تحت ضوء البدر الساطع مثل سوبها فى وحدتها الموحشة ..تطل من عليائها على الأرض النائمة . كانت حياتها الفتية القوية ، تهتز وتضطرب فى اعماقها ، وكانت السعادة والأسى يملآن قلبها الى حوافيه . ولكم احست قبل اليوم بالوحدة والأسى ولكن شعورها بهما فى هذه اللحظة كان قد بلغ اقصى مداه .. كان قلبها مثقلا باعبائه ، فائضا بمشاعره وآلامه ، ولكنها لا تستطيع .. لا تستطيع ان تتكلم .. لقد كانت تقف فى حواشى هذه الآلام الصامتة المضطربة ، فتاة صامتة مضطربة ، تواجه احزانها فى جوف الليل ..

وملأت فكرة زواج هذه الخرساء الحزينة قلبى ابويها باهتمام قلق . اخذ الناس يلوكون خبرها ويلومون ابويها على بقائها دون زواج ، ثم استفاض الأمر ، فأخذوا يفكرون فى نبذ الأسرة واجتوائها ، وكان بانى كانتا رجلا ميسور الحال ، فلم تكن به من حاجة الى اعداء ، ولهذا فقد حزم امره ، وذهب الى كلكتا . حيث غاب فيها اياما قلائل ، وقد عاد الآن ، وهو يقول :ــ

ــ يجب ان نذهب الى كلكتا ..

وتأهبت الأسرة للذهاب الى هذا المكان الذى لم تعرفه من قبل . واصبح وجه سوبها كالفجر الملفع بالضباب ، مليئا بالأحزان والدموع ، وظلت كالحيوان ، الأعجم ، تقفو اثر امها وابيها اينما ذهبا ، وفى قلبها ذلك الرعب الغامض ، الذى ظل يتجمع فى نفسها يوما بعد يوم ، وتحدق فى وجهيهما بعينيها الواسعتين كأنما تتمنى ان تفهم شيئا . ولكنهما لم يجودا عليها بكلمة واحدة .

وفى ذات يوم قبل الرحيل ، وفى زحمة هذه المخاوف ، وكان براتاب فى مكانه المعتاد ، يصطاد السمك على حافة النهر بعد الظهر ، ضحك حين رآها وهو يقول :

- « وهكذا اذن .. فقد اصطادوا لك عريسا ، وستتزوجين ... نفسى إلاَّ تنسينى تماما ..» .

ثم أدار رأسه عنها وعكف على صيده ونظرت سوبها الى براتاب . كما تنظر الفريسة الى وجه صيادها تسأله فى احتضارها الصامت « ما هو ذنبى ؟» .

ولم تطل جلوسها تحت شجرتها المعتادة فى ذلك اليوم .. وكان بانى كانتا يدخن فى غرفة نومه حين انحنت سوبها على قدميه وانفجرت تبكى وهى تحملق فى وجهه .. وحاول ابوها ان يروح عنها ، وقد ابتلت وجنتاها بالدموع .

وكان قد تقرر ان يسافروا حيث يكون الغد الى كلكتا . فذهبت سوبها ، الى زريبة البقر ، لتودع رفاق طفولتها ، وتلقى عليهم نظرة قبل الرحيل فأخذت تطعمها العلف واحتضنتها ، وظلت تنظر فى وجهيها ، والدموع المنحدرة من عينيها ، تعبر لهما عن حالها ، ومشاعرها .

وكان القمر فى تلك الليلة ابن عشر ، فغادرت سوبها غرفتها والقت بنفسها على مجلسها المعشب الذى الفته واحبته على ضفة النهر كما لم تحب مكانا آخر فى الوجود ، وكأنها القت ذراعيها حول الأرض ، تلك الأم القوية اللائذة بصمتها الأبدى العميق ، وفى نفسها ان تقول ... « وانت ايضا يا اماه لفى ذراعيك حولى كما الف ذراعى حولك .. ضمينى ، تشبثى بى .. ولا تتركينى يا اماه ..» .

واخيرا فى ذات يوم .. وفى بيت من بيوت كلكتا شرعت ام سوبها تلبسها ثيابا غالية فى عناية بالغة ، وقد عقصت شعرها وعقدته فى الأشرطة المزخرفة . واسرفت فى تزيينها وتزويقها ، وبذلت اقصى ما تستطيع من جهد لتقتل جمالها الطبيعى .

وامتلأت عينا سوبها بالدموع ، وخشيت امها ان يورم البكاء عينيها ، فعنفتها وزجرتها بحدة مسرفة ، ولكن الدموع لم تعد تعبأ بالتعنيف او الزجر ، وظلت العبرات تنهل من عينيها باستمّرار .

وقدم العريس ، مع صديق من اصدقائه ، ليرى عروسه ، وكان القلق والمخاوف تملأ قلبى الأم والأب وهما يريان هذا الوحش الخرافى ، وقد جاء ينتقى القربان الذى يقدمانه اليه . وظلت الأم خلف الستائر ، تعنفها وتزجرها فلا تزداد سوبها الا بكاء وعويلا ..

وعندما ادخلوها على العريس ، اخذ يتأملها ويتفحص قسماتها وجسمها ، وقتا طويلا ، ثم قال :ـ « لا بأس بها » .

ولاحظ على الأخص دموعها ، فرجح ان لها قلبا حنونا رقيقا .. وعد ذلك فى محاسنها ، وهو يقول :ـ « ان القلب الذى يشقى اليوم ويتعذب لفراق الأبوين ، سيكون قلبا وفيا ، والطفل حين يبكى ، كمحارة اللؤلؤ ، تزداد قيمتها بازدياد عدد اللآلىء فيها ...» .

وتم الزواج فى يوم اتفق الحاسبون والمنجمون على انه مبارك حسن الطالع . وما كاد الأبوان يفرغان من تسليم الخرساء الى يد زوجها ، حتى اسرعا بالعودة الى القرية وهما يحمدان الله فقد ضمنا لنفسيهما المكانة التى ينشدانها ، فى هذه الدنيا ، والمقام الذى يتطلعان اليه ، فى الآخرة .

وكان عمل العريس ، فى اقصى الغرب ، وما كادت تتم مراسم الزواج حتى أخذ عروسه الى هناك ..

وبعد مرور عشرة ايام عرف الجميع ان العروس خرساء ... واذا لم يكونوا قد عرفوا ذلك من قبل ، فلم تكن هى مسؤولة عن الخدعة .. انها لم تخدع احدا قط .. وقد كانت عيناها تقولان لهم كل شيء وتفصحان عن كل شيء ، وان لم يفهمها احد .. كانت تنظر الى كل يد من ايدى القوم تحاول ان تجد منها اشارة تفهم منها شيئا ولكن الأيدى ظلت لا تقول شيئا قط .. وقد غابت عنها تلك الوجوه التى الفتها منذ ولدت ، والوجوه التى كانت تفهم لغة فتاة خرساء ..

وظل قلبها الصامت يزخر بما لا نهاية له من بكاء لا صوت له ، ولا يسمعه الا الله ، وهو وحده الذى يعلم ما تنطوى عليه الصدور والقلوب .

* * *

فهرست



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

العنوان	المؤلف
● الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
● من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
● عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
● الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
● موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
● أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
● نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
● إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
● رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
● شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
● عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
● تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
● وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
● خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
● أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
● كتاب في علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
● الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
● طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
● التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
● الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
● ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
● بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
● أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
● النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
● قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي

• نبض		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الأصداف	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة	(تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى	(ديوان شعر)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم		الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون		الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة		الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات	(الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق		الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- إليها .. (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
- البعث — الأستاذ محمد علي مغربي
- شمعة ظمأى (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- وحي الصحراء — الأستاذ عبدالله بلخير، الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- طيور الأبابيل (ديوان شعر) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- قصص من طاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- زوجتي وأنا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير

تحت الطبع :

- الطاقة نظرة شاملة — الدكتور عبدالهادي طاهر
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- هكذا علمني ورد زورث — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- عمر بن أبي ربيعة — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز (تراجم) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- لا رق في القرآن — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- من مقالات عبدالله عبدالجبار — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- دعوة ودفاع — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- إليكم شباب الأمة — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- لن تلحد — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- سرايا الإسلام — الشيخ أبو تراب الظاهري
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- التنمية قضية (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) (الطبعة الثانية) — الدكتورة أمل محمد شطا
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي
- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

العنوان	المؤلف
الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبدالمنعم رسلان
النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
مبادىء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
النظرية النسبية	الدكتور عبدالرحمن فكوي الدكتور محمد عبدالهادي كامل
أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
تاريخ طب الأطفال عندالعرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
المنظمات الاقتصادية الدولية	الدكتور حسين عمر
الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
التعلم الصفي	الدكتور محمد زياد حمدان

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

العنوان	المؤلف
• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزّي
• الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول	الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت	الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
• العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن	الأستاذة أميرة علي المداح
• القصة في أدب الجاحظ	الأستاذ عبدالله باقازي
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف	الأستاذة فوزية حسين مطر
• النظرية التربوية الإسلامية	الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
• نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون	الأستاذ رشاد عباس معتوق
• المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة)	الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
• الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية	الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
• دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام	الأستاذة فتحية عمر الحلواني

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• دراسة اثنوغرافية لمنطقة الحسا (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي	الأستاذ عبدالكريم علي باز
• الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار	الدكتور فاروق صالح الخطيب
• الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام	الأستاذة نورة عبدالملك آل الشيخ
• تقييم النمو الجسماني والنشوء	الدكتورة ظلال محمود رضا
• العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثربولوجية حديثة)	الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
• تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الاسلام وحتى منتصف القرن السابع عشر	الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر



صدر منها :

الكتاب			المؤلف
• حارس الفندق القديم	(مجموعة قصصية)		الأستاذ صالح ابراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)		الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي			الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية			إعداد إدارة النشر بتهامة
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي	(باللغة الانجليزية)		إعداد إدارة النشر بتهامة
• تسالي	(من الشعر الشعبي)	(الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني			الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
		(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم			الأستاذ إبراهيم سرسيق
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الإنجليزية)	(الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الإنجليزية)		الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)		الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)		الأستاذ السيد عبدالرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام			الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك			الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي			الدكتور عاطف فخري
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف			الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)		الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)		الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)		الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟			الدكتور اسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية			الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
• القرآن وبناء الإنسان			الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية			الأستاذ علي عبده بركات
• الطب النفسي معناه وأبعاده			الدكتور محمد محمد خليل
• الزمن الذي مضى	(مجموعة قصصية)		الأستاذ صالح ابراهيم
• مجموعة الخضراء	(دواوين شعر)		الأستاذ طاهر زمخشري
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخارجي
• ديوان السلطانين			الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• الامكانات النووية للعرب وإسرائيل			الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• رحلة الربيع			الأستاذ فؤاد شاكر
• وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• البحث عن بداية	(مجموعة قصصية)		الأستاذ جواد صيداوي

- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) — الأستاذة منى غزال

تحت الطبع :

- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- المذاهب الأدبية في شعر الجنوب — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- الماء ومسيرة التنمية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدفاع عن الثقافة — الدكتور عبدالعزيز شرف
- من فكرة لفكرة — الأستاذ مصطفى أمين
- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث — الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني، الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب للأطفال

صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاء • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل • الضفدع
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس • الدب
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة • الخرتيت

- البـــوم • البجـــع • الهدهـد • الكنغـــر
- الخفـــاش • النعـــام • فرس النهر • التمســـاح

مجموعة: حكايات كليلة ودمنه — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاءالتي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة: التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر • الصلاة • صلاة العيدين • صلاة المسبوق • الشهادتـان • التيـــمم
- قد قامت الصلاة • الاستخارة • صلاة الجمعة • أركان الاسلام • الـوضـــوء
- صلاة الجنازة • صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة: حكايات للأطفال — نقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذى فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition'
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.



طبعت بمطابع دار البلاد
جدة ـ ص . ب : ٧٦١٤
ت : ٦٧١٦٤٦٦ خمسة خطوط